كيف تدعو ملحداً

تأليف

أبي يوسف محمد بن الحسن آل فراج

تقريظ فضيلة الشيخ الوالد

عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين

مصدر هذه المادة :







المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أما بعد:

إن الله – عز وجل – قد أخرجنا نحن المسلمين من العدم إلى الوجود من أجل القيام بمهمة شاقة ذات تكاليف باهظة متمثلة في: الدينونة لله بمنهجه، وتحقيق العبودية له، وقيادة البشرية مع امتلاك زمامها إلى خير الدنيا والآخرة.

ومن هنا كان لزاماً علينا أن يَنْبَثِقَ وجودُنا من كتاب الله حتى يَتَسَنَّى لنا القيامُ بدورنا المنشود؛ ومن ثَمَّ كان التَّلَقِّي من الله وحده هو المنهج القويم والطريق الوحيد المحقِّق للأمة دورَها المناطَ بها من

قبل ربِّها؛ فالعقائدُ والتَّصَوُّرات، والقيم، والمـــوازين، والســـلوك، والمعاملات، وشتى شؤون الحياة، لا نستقيها إلا من وحي الرحمن، وأما أوحال الشياطين وأرجاس الطواغيت المتشخِّصَة في شـــرائعهم وأحكامهم المنتوتة الصِّلة بسلطان الله وإذنه، فنجهر ونعلن للنـــاس بحسم ووضوح حتميةَ وفرضيةَ الكفر بها، والبراءة من أهلها؛ حـــتى يستقيم الإسلامُ عقيدةً صحيحةً في نفوس النَّاطقين به، وتتحقق لهم النجاة الحقيقية في الدنيا والآخرة؛ لا النجاة المزيفة التي اجْتُثَّتْ مـــن فوق الأرض ما لها من قرار.

فالأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي تفردت بالاستســـلام لربها، والقبول لحكمه، والانقياد لأمره، وكفرت بكل ما يُعْبَدُ مـــن دونه.

فكما أنَّ اللهَ قد انفرد بخلقنا، فيجب أن ينفرد بتَأَلُّهنا ويتحكم في أَزمَّة أمورنا.

ولقد اصطفانا ربُّنا وطَهَّرنا وجعلنا " أمةً وسطاً " — أي خياراً عدولاً ؛ حتى يتسنَّى لنا القيام بالشهادة على الناس ، والعدالة قـــد ترجمتها الأمة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله ربًّا ومعبوداً وحاكماً ووليًّا؛ فتلك هي سمةُ الأمة وركيزتها الأساسية التي تميَّزت بها عن بقية الأمم، واستحقت القوامة على كافة البشر.

ولقد مَنَّ اللهُ علينا بأسباب الهداية، ومقوِّمات الرِّيـــادة؛ فمـــن المعلوم أنَّ كلَّ نفس قد فطرت على الفقر الذَّاتيِّ، ومن ثَمَّ التَّوَجُّـــه لإله غنيٍّ قويٍّ ليسدَّ فقرها ويلبِّي مرادها؛ وتلك هي زبـــدةُ ديننـــا

الذي ارتضاه الله ديناً للعالمين.

إذاً فنحن المسلمين الأمة الوحيدة التي ما زالت قادرة على دعوة جميع الأمم وسائر القرون بدينٍ سديد قويم قد تطابقت وتصادقت الكتب الربانية والأدلة العقلية والحجج الفطرية ودلالات الآيـــات الكونية على حسنه ووجوبه، وعلى بطلان كافة الأديان من دونه.

وتلك الحقيقة بأبعادها كاملة كانت نصبَ أعـــين المســـلمين الأُوَل، وترجموها إلى واقع عمليٍّ ملموس، وقاموا بها خيرَ قيام، ومن ثَمَّ دانت لهم الدُّنيا بأَسْرها، وذَلَّت لهـــم الأكاســـرة والقياصـــرة والجبابرة، وبَلَغَ الإسلامُ مبلغَ الليل والنهار؛ علت رايـــةُ التوحيـــد والإيمان، ونكست رايات الكفر والإلحاد، وسادت البشرية الأمـــن والطمأنينة، حتى كانت المرأة تسير من صنعاء إلى حضـــرموت لا تخشى إلا الله والذئب على غنمها.

ولما غابت تلك الحقيقة عنا نحن المسلمين في هـــذا الزمـــان، وطالت غفلتنا عن سنة ربانية لا تتبدل ولا تتغير وهي: من لم يَدع يُدع ومن لم يَغز يُغز، انقلبت المـــوازين، واختلطـــت الرايـــات، وضاعت القيم، واستبيحت الحرمات، وذهب دورنـــا، وذابـــت هويتنا، وصرنا كالغنم المائجة على وجهها في ليلة مطيرة بلا راع؛ لا تعلم لماذا القرار، ولا أين القرار.

ولا رجوع لنا من التيه الذي ضرب بأطنابه حولنا، ولا عـــود لهدفنا المنشود ولدورنا، إلا بتجريد العبوديـــة لله وتحريـــر أصـــول التوحيد من أدران الشرك والإلحاد، وتطهير أصـــول الســـنة مـــن

موبقات البدع والمحدثات، ثم الاستقامة على تلك الأصول والعض عليها بالنواجذ، ثم إعداد العُدَّة وشَحْذُ الهمم وبذلُ الجهد لإبـــلاغ ديننا الحنيف غضًّا طريًّا كما أنزل بلا أدنى شائبة مـــن شـــرك أو ابتداع.

وإسهاماً منَّا في العمل على إحداث ثورة بلاغ لهـــذا الـــدين جاءت هذه الرسالة، وأُعدَّتْ؛ لعلّها تكون لبنة من لبنـــات بنـــاء متكامل شامخ.

وقد جاءت هذه الرسالة " كيف تدعو ملحداً " بعـــون الله وفضله في فصول:

الفصل الأول: الأدلة الجليَّةُ على وجود ربِّ البرية؛ وفيه دلالة الفطرة، دلالة خلق الإنسان، دلالـــة الأرض ومـــا عليهـــا مـــن المخلوقات، دلالة الليل والنهار والشمس والقمر، دلالة السماء وما فيها من النجوم والكواكب.

الفصل الثاني: صفات الإله الحق.

وفيه: معرفة الإله.

الفصل الثالث: الأدلة العقلية على وحدانية مدبر الكون؛ وفيه: دليل الإحداث، شبهة وجوابها، بطلان تعدد الآلهة.

الفصل الرابع: الأدلة على بطلان تألُّه غير الله.

وفيه: دليل الإحداث. شبهة وجوابها. بطلان تعدد الآلهة.

الفصل الخامس: الأدلة العقلية على البعث والنشور.

وفيه: مبدأ الثواب والعقاب، والإنشاء والإعادة، البعث بـــين الإمكان والوجوب.

الفصل السادس: الأدلة العقلية على بعثة الرُّسل.

وفيه: كيف نعبد الله.

الفصل السابع: تعريف الإسلام الصحيح.

ثم تأتي الخاتمة؛ وفيها بيان لشبهة قد تصدُّ الناس عن سبيل الله، وتمنعهم من الدخول في الإسلام؛ ألا وهي: الحال المزري لكثير من المسلمين والمنتسبين إليه اليوم.

وفي النهاية: أَتَوَجَّهُ بالشُّكْر لكلِّ مَنْ ساعد في إتمام هذا العمل، وأَخُصُّ بالذِّكْر فضيلةَ الشيخ الوالد/ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين – حفظه الله – الذي بذل جهداً في قراءة الرسالة والتقـــديم لهـــا، فجزاه الله خيراً.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلَّى اللهُ على محمـــد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه / أبو يوسف

مدحت بن الحسن آل فراج

الفصل الأول

الأدلَّةُ الجليَّةُ على وجود ربِّ البريَّة

دلالةُ الفطرة:

لا شكَّ أن الناسَ جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها يجدون من أنفسهم أموراً مُستَحْسنة ومُستَقْبحة فيما بينهم دون القيام منهم بالاتِّفاق على حسنها وقبحها؛ مثل

ميل الناس جميعاً إلى حُبِّ النساء، والبنين، والمال، والـــذهب، والفضة، والجمال، وإلى بُغْض الفقر، والدمامة، والمرض، والعجـــز، والكسل. .. هذا في الشهوات.

وأما في السلوك: فنجد اتِّفاقَ البشر علـــى حـــبِّ الصـــدق، والأمانة، والعدل، والتواضع، ومحاسن الأخلاق...

وعلى بغض الكذب، والخيانة، والظلم، ومساويء الأخـــلاق. ..

والسؤالُ المطروح في هذا الصَّدَد هو: هل هناك مدرسة دخـــل فيها كافة البشر – على اختلاف مللـــهم، ونحلـــهم، وألســـنتهم، وطباعهم... فتلقَّوا فيها تلك التعاليم والسلوك؟

بالطبع: لا.

بل إنَّ الطفلَ الصغيرَ لو تُرك على طبيعة خلقته منذ ولادته حتى تَعَقُّله دون معلم، ولا مربٍّ لوجدتَه قد شبَّ على الحالة الموصـــوفة سابقاً.

إذاً فتلك الشهواتُ والغرائز وهذه الأخلاق والسلوك قد فُطـــر الإنسان عليها وطبع بها، وهي تجري في دمه وتســـري في روحـــه، وتنمو مع نمو جسده؛ بل إن هنا أمراً هو أعجب مما ذكـــرت؛ ألا وهو: تلك الضوابط والحدود التي رُكزت في النفوس لهذه الشهوات والغرائز؛ فإننا نرى من أنفسنا أنه لو وقع بصر أحدنا صدفة علـــى أمه وهي عارية تماماً – ولو كانت تتمتع بقدر كبير مـــن الحســـن والبهاء – لم تتحرك له شهوة نحوها ألبتة.

وفي ذات الوقت لو شاهد امرأةً أجنبيةً عنه – وهي على درجة من الجمال دون أمه بكثير – مبدية عن بعض مفاتنـــها لتحركـــت وانبعثت شهوته تجاهها، والسؤالُ المطروحُ الآن:

من الذي فطر الإنسان على هذا ؟

ومن الذي غرس فيه تلك الضوابط والحدود التي لم يتلقَّها من أحد من الخلق بل جُبل عليها وفطر بها؟! وهذا يَدُلُّ بـــيقين علـــى وجود خالق فاطر فَطَرَ الخَلْقَ على هذا وصبغهم به.

والشيء الضروريُّ الذي نجده من نفوسنا هو وجوب عبـــادة الفاطر المنعم الخالق؛ لأنَّنا مجبولون على مَحَبَّة شكر المـــنعم؛ قـــال تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِـــي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـــونَ *﴾ [يس: ٢٢].

دلالةُ خلق الإنسان:

من المعلوم بداهة بضرورة الحس عدمية الإنسان قبل وجـــوده؛ فلو سأل سائلٌ: هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟

لكان الجواب: نعم.

وكلٌّ ما كان عدماً ثم تَحَقَّقَ له الوجود فلا بُدَّ حَتْماً من موجد أوجده، ومن خالق خلقه وصَوَّرَه؛ وعلى هـــذا اتَّفَقَـــتْ العقـــولُ السليمةُ والفطَرُ المستقيمة؛ فالصنعةُ لا بدَّ لها من صانع، والبناء لا بُدَّ له من بان، والمخلوق لا بُدَّ له من خالق؛ فالطفلُ الصَّغير إذا ضُرب من خلف التفت واستدار؛ لعلمه أن الضربَ لا بدَّ له من ضارب، ويبكي حتى يُقتصَّ له؛ لعلمه أن الضرب لا بدَّ له مـــن ضـــارب، ويبكي حتى يُقتصَّ له؛ لحبِّه العدل والقصاص.

ولو قال لنا قائل: إني رأيت سفينة بلا ربان ولا قائـــد تشـــق البحر وسط أمواجه المتلاطمة ولججه الغائرة في ظلمات الليل البهيم حتى تصل إلى شاطئه، فتخرج متوجِّهة إلى الأشجار فتقوم بقطعها وحمل أخشابها على مَتْنها، ثم تعود مُبْحرةً إلى الشـــاطيء الآخـــر فتخرج متوجِّهةً لإقامة بناء شامخ، فإنَّ البُلَهاءَ والسُّفهاءَ قبل العقلاء سيقطعون بفساد عقله وبلادَة فكره ونظره؛ فكيف الحـــالُ بهـــذا الكون الفسيح؟!

سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار وأمواج، وطـــير صافَّات ويقبضن في جوِّ السماء فلا يَقَعْنَ على الأرض، ومخلوقاتٌ

متنوعةٌ قويةٌ وشديدةُ البأس مُسَخَّرة للإنسان الضعيف، وشمس وقمر دائبان، وليل ونهار متعاقبان: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكُلٌّ في فلك يسبحون. ..

أفلا يَدُلُّ هذا على وجود خالق عليم قدير حكيم سميع بصــير مبدع؟!

شبهة وجوابها:

فإن قال قائل: إن أبويَّ هما اللَّذان خلقاني وأوجداني، وكذلك الأمر في سائر المخلوقات. فالجواب: نحن نعلم أن المنيَّ المتدفقَ مــن فَرْج الزَّوْج إلى فَرْج زوجته يكون سبباً في مجيء الولد.

وهاهنا سؤال: هل نحن البشر الذين صنعنا هذا الماء وكوَّنّاه؟!

والجواب المعلوم قبل الإجابة: بالطبع لا.

وإليك الأدلة:

فإن كان هذا من صنع البشر فــأروني صــانعه، وأعلمــوني بمكوِّناته، وأخبروني بخزائنه... بل الإنسانُ تَمُرُّ عليه فترةٌ من الزمان منذ ولادته حتى بلوغه لا يستطيع فيها قذف قطرة واحدة من هذا الماء، ثم يأتيه بغتة بصورة قليلة نسبيًّا حتى يكثر ويعظم في مرحلــة قوته وشبابه، ثم لا يلبث هذا الماء أن يعود لحالته الأولى من القلــة والندرة حتى ينقطع بالكلية في مرحلة كبره وشيخوخته.

فإن كان هذا من كسب الإنسان وصنعه، فلماذا لم يحافظ على قوَّته وتدفُّقه طوال عمره؟!

وكم من زوج يأتي زوجته مراراً ابتغاء الولد ولا يُرزقه!

فلو كان هو خالقه ومبدعه فلماذا استعصى عليه وجوده؟!

ثم إن الصانعَ لا بد وأن يكون محكماً لصنعته، قادراً عليهـــا، عالمًا بها.

وعليه.. فأروني الرجلَ الذي يأتي زوجتَه قائلاً: سوف أخلـــق ولداً جميلاً أبيض اللون، أزرق العين، أشقر الشـــعر، ولأني أملـــك سبب ولادته فأنا أملك سبب وفاته، فسوف أحييه أبداً بلا انقطاع ولا موت.

وأعلموني بالرجل الذي يأتي زوجتَه قائلاً: سوف أخلق جاريةً سمراء ذات شعر أسود، ستمكث ثمانين سنة من العمر، ثم أتوفاهـــا من غير علَّة تعتريها طوال حياتها.

قال – تعالى – في محكم التنزيل:

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (الواقعة: ٥٨-٥٩)

وها نحن نرى الرجل والمرأة الولود، والرجل والمـــرأة العقـــيم؛ فمن الذي قَدَّرَ وقضى؟ ومن الذي أعطى ومنع؟ قال تعالى: ﴿لِلَّـــهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَـــنْ يَشَـــاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى: ٤٩-٥٠).

التَّطَوُّرُ دليلُ الإحداث:

إن الأشياءَ التي تكون محلًّا للحوادث والتغييرات والتَّنَقُّل من حال إلى حال دون إرادة واختيار تكون لا محالة مخلوقة، ومُدَبَّرًا أمرها، ومصورةً وفقَ إرادة صانعها؛ وهذا شأنُ الإنسان؛ فلو تَدَبَّرَ الإنسانُ في نفسه بعقله لرآها مُدَبَّرَةً، وعلى أحوال شتى مصرفة؛ كان نطفةً ثم علقةً ثم مضغة ثم لحماً وعظاماً؛ فيعلم أنه لم ينقل نفسَه من حال النَّقْص إلى حال الكمال.

وهو إذا اكتمل خَلْقُه وبلغ أَشُدَّه ونضج عقله، لا يستطيع أن يُحْدث لنفسه عضواً من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، ولا ريبَ أنَّه في حال ضعفه ونقصه يكون عن ذلك أعجز.

ويرى الإنسان نفسه طفلاً، ثم شابًّا، ثم كَهْلاً، ثم شيخاً؛ وهذا يَدُلُّ على قَهْر الإنسان وأنَّه مُسَخَّرٌ لربِّه ومالكه، ويبرهن على أنَّ له صانعاً صَنَعَه، وخالقاً خَلَقَه ونَقَلَه من حال إلى حال؛ وإلَّا لما تبدَّلَتْ به الأحوال، وتغيَّرت به الأطوار؛ قال – تعالى – في كتابه الكريم:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤).

وصفاتُ الكمال للمخلوق من العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والحكمة والإرادة بُرْهانٌ جَليٌّ على ثبوتها لخالقه على وجه

يليق بجلاله وعظيم سلطانه؛ لأنه لو لم يكن بتلك الصفات لكـــان المخلوقُ أكملَ من الخالق؛ وهذا محالٌ؛ لأن الكمالَ لا يتولَّدُ مـــن النُّقْصان، ولأنَّ فاقدَ الشيء عاجزٌ عن إعطائه؛ قـــال – تعـــالى – مخاطباً الإنسان:

﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ (البلد: ٧-٨)

وحريٌّ بنا أن نَتَبَصَّرَ في أنفسنا ونسأل عقولنا: مَن الذي جَعَلَ الإنسانَ يُبْصر بشحم، ويسمع بعظم، ويتكلَّم بلحم ؟! ومن الذي صَوَّرَ وجهَه الْمُقدَّرَ بشبر في شبر، ورتب أعضاءه ترتيباً لا يختلف من بشر لبشر ألبتة؛ ومع ذلك لا يوجد في كافة أنحاء الكون شخصان متشاهان إلى حدِّ استحالة تميُّز أحدهما من الآخر؟!

فما أعظم تلك القدرة والحكمة التي أظهرت في تلك الرُّقْعـــة الصَّغيرة هذه الاختلافات التي لا حدَّ لها!

ومن الذي جعل الجنين حيًّا في بطن أمه مدةً مديدةً مع تعـــذر عليه النفس لحظات لمات في الحال ؟! ومن الذي أخرج الطفلَ من بطن أمِّه لا يعلم شيئاً، ويكون على حالة لا يفرِّق بين الماء والنـــار، ولو وضع في متناول يده كافة الأطعمة وألذ المـــأكولات وألـــين الشراب و لم يجد من يناوله ذلك لمات في الحال؟!

ثم إذا به يشبُّ أعقل المخلوقات، وأحكم الكائنـــات؛ سميعـــاً بصيراً قديراً مريداً متكلماً عالماً معلِّماً... فمن الذي طَوَّرَه وكمَّلَـــه وعلَّمَه وحفظه وألهمه رشدَه وأمكنه من سائر المخلوقات وسخَّرها له ؟!

ومن الذي خالف بين ألسنة وألوان وطباع ومزاج الخلق؟! فلو كان الأمرُ طبيعيًّا – كما يزعم المكابرون – لجاءت الخلائق كلـــها على وتيرة واحدة، وعلى سمت متجانس وطبع لا يختلـــف! قـــال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَـافُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

ومن الذي صَوَّرَنا في أرحام أمهاتنا من نُطَف آبائنـــا كيـــف يشاء؟!

ومن الذي يتعهَّد الأجنةَ في أرحام الأمهات بالرعاية والنمـــو والوقاية من الآفات والأمراض؟! ومن الذي كتب عليهـــا فَقْرَهـــا وغناها وشقاءها وسعادها وصحتها ومرضها وحياها وموها وطولها وقصرها؟!

فهذا كُلُّه يُقَدَّر ويكون، والخلق كلهم غافلون عنه، جـــاهلون به، وبمعزل عن تدبيره؛ أفلا يَدُلُّ هذا على وجود خالق عالم مبدع قادر حكيم قاهر مسيطر، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا الاستعانة إلا به.

ومن الذي هدى المولودَ إلى التقام ثدي أمِّه، وهَيَّأه ليتغذَّى بما فيه من اللبن؟!

فالأطفالُ جميعاً في سائر أنحاء الكون مثلاً إذا الـــتقم أحـــدهم ثديَ أمِّه امتصَّ ما فيه و لم ينفخ فيه بفيه؛ فمن الذي علَّم ابن يـــوم واحد هذا وألهمه الانتفاعَ بطريق كهذا تقوم به حياته؟! فإنَّا نعلـــم يقيناً أنه لو اجتمع الناسُ كلُّهم في صعيد واحد على أن يُعَلِّموا ابن

يوم واحد شيئاً لعَجَزوا وخارت قُواهم، ومن الذي خلق الرَّحْمةَ في قلوب الخلائق التي بها يتراحمون، حتى إن البيهيمةَ العجماء لترفـــع حافرَها عن ولدها خشيةَ أن تصيبَه بسوء ؟!

وها هنّ الأمهات يَحْمِلْنَ أبناءَهنَّ في بطونهنَّ تسعةَ أشهر وَهْناً على وَهْن وكرهاً على كره، وتقاسي الأمُّ في سبيل ولـــدها أشـــدَّ الآلام، وتعاني من أجله أقصى الأوجاع، ومع هذا تجد من نفســـها رحمةً له وحناناً عليه لا تستطيع دفعَهما؛ وليس هذا حَجْـــراً علـــى البشر فقط؛ بل تلك الرحمةُ بعينها مطبوعٌ عليها الحيتان في البحـــر والإبل في الصحراء والسِّباع في الغابات والطير في جو السماء.

ومن الذي يخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويمرض ويشفي، ويسعد ويشقي، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات؟!

من الذي يدبر أمر كافة المخلوقات في هذا الكون الهائل، فـــلا يشغله خلق، ولا يغفله تدبير عن تدبير، ولا تلهيه حاجة عن حاجة؛ بل أمر العالم كله يسير في اتساق واتفاق مع تسخير محكم من مدبر قاهر حكيم خبير عليم؟!

وأختم هذه الدلالة بذكر حال النَّبات وما يحمله مـــن العـــبر العظيمة والبراهين الباهرة مع دقَّة خَلْقه وإتقان صُـــنْعه، ثم إذا بـــه يصبح قوتاً مسخَّراً للحيوان، حتى يكونا جميعـــاً قوتـــاً مســـخَّراً للإنسان؛ وهذا يدلُّ على كمال الإنســـان وتميُّـــزه علـــى ســـائر المخلوقات المسخَّرة له.

فلما علمنا تسخير المخلوقات بعضها لبعض حتى يؤول نفعُهـــا للإنسان وهو غير مسخر لأي مخلوق آخر، مع قطعنا بأن الخلـــق يقتضي التسخير، فإذا بنا نتيقن وجوب تسخير الإنسان لخالقـــه – سبحانه – على أن يكون بكلِّيَّته عبداً لربه، منقطعًا لألوهيَّته، شاكراً لنعمه، ومسبِّحاً بحمده.

دلالة الأرض وما عليها من المخلوقات:

على العاقل اللَّبيب أن ينظر إلى الأرض ويعتبر بآياتها ويتـــدبَّر أحوال مخلوقاتها، ثم يرجع إلى نفسه سائلاً:

من الذي جعل لنا الأرضَ قراراً وفراشاً، وأجرى خلالها أنهاراً؟ ومن الذي ثَبَّتَها بالجبال الرَّاسيات حتى لا تميد بنا؟ ومن الذي ذلَّلها للسّكنى وللبناء وللغرس عليها عن منفعة من منافعنا؟ ومن الـــذي سلك فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ الميَسَّرةَ للطواف عليها، وبلـــوغ ســـائر أنحائها دون ممانعة ولا منازعة حتى ننتفع بجميع خيراتها وسائر ثمراتها وكل ثرواتها؟! ومن الذي صَبَّ عليها الماءَ صبًّا ثم شقَّها فـــأخرج منها نباتاً مختلفاً طعمه ولونه ورائحته ومنافعه، وجعل فيها من كلٍّ زوجين اثنين يُسقى بماء واحد، ونفضِّل بعضه على بعض في الأكل؛ فمنه قوت البشر والطير والدواب، ومنه الطعام والفاكهة والكسوة؟ قال تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ (طه: ٥٤).

ومن الذي سَخَّر لنا البحار فتسير الفلك مواخر فيها، فلا تغور في قاعها مع ثقلها وعظيم صنعها؟! ومن الذي يسخر لهـــا الـــريح

لدفعها، ولولاها لظلَّت رواكد على ظهور البحار؟! ومـــن الـــذي يحرك الرياح الساكنة، ويسكن المتحركة منها؟! وها نحن نعلم يقيناً أنه لو اجتمعت القوى العظمى مـــن مشـــارق الأرض ومغاربهـــا، وجاءت بعدها وقوها وجبروها، وأمسكت بأسلحتها الفتَّاكة على أن تسكن الريح المتحركة أو تحرك الساكن منها لتعذر ذلك عليها، ورجعت تجر أذيال الخزي والذل من ورائها.

ومن الذي سَخَّرَ الرياح، فجعلها تارة تثير السحاب، وتـــارة تؤلِّف بينَه، وتارة تنزل ماءه، وتارة تمزِّقه وتزيل ضرره، وتارة تُرسَل بالرحمة، وأخرى تحمّل بالعذاب.. فمن الذي صَرَّفَها هذا التَّصْريف وأحكم تنوُّعَها وأودعَ فيها من منافع البشر ما لا يستغنون عنه ؟!

إن في اختلاف أحوالها، وتنوع صورها لآيات بيِّنـــات علـــى وجود الخالق الحكيم الخبير القاهر القدير الذي خلقهـــا فـــأحكم صنعَها، وقهرها وسخرها، فانقادت لجبروتـــه وأذعنـــت لجلالـــه وخضعت لأمره؛ إذ لو كان الأمرُ طبيعيًّا وآليًّا كما يزعم الجاحدون لكان نَظْمُها واحداً وسيرها متشابهة وحالاها متطابقة.

ومن الذي جعل السحاب معلَّقاً في جو السماء بلا علائق من فوقه تمسكه، ولا أعمدة من تحته تحمله، مع ما يطويه في بطنه مـــن المياه الكثيرة التي تسيل منها الأودية، وتمتليء بها البحار والأنهـــار، والتي لولا تسخيرها لهلك الإنسان والحيوان والنبات وفنيت الحيـــاة بأسرها؟! قـــال تعالـــــى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

ومن الذي أمره بحفظ مائه، وألا ينزله إلا بقدر معلوم ولأجل محدود في بقعة معينة من الأرض لا يتجاوز حدودها، ولا يتخطـــى أقطارها بقطرة واحدة من مائه؟! ومن الذي أمره أن ينزل ماءه على الأرض الميتة الهامدة فإذا بها تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج؟! ومن الذي أمره بإنزال مائه على قدر حاجات البشر؛ فلا يمســـكه عنهم فيهلكوا، ولا يفرغ عليهم من كأسه فيغرقوا؟!

وكأني الآن بواحد يطل برأسه معترضاً ويقول: فما بالُ السيول والأعاصير المدمرة والزلازل والبراكين المحرقة؟!

أقول مستعيناً بالفتَّاح العليم: إنَّ في اخـــتلاف أحـــوال هـــذه المخلوقات وتباين صفاتها من السكون والحركة والعذاب والرحمـــة لآيات بيِّنات ودلالات باهرات على حدوثها وتسخيرها لملك عزيز قاهر مسيطر منتقم جبَّار أمره بين الكاف والنون؛ إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن. فيكون؛ فيرسل الرياحَ، وأحياناً يجعلها ريحاً عقيمـــاً تدمر كل شيء بأمره وإذنه، ويمسكها أحياناً، ويرسلها رحمةً لعباده أحياناً أخرى.

ومن الذي يخرج الحيَّ من الميت، ويخرج الميتَ مـــن الحـــيِّ؟! يخرج الحيَّ من النُّطفة، ويخرج النطفةَ من الحيِّ؟! ويخرج الحبَّ من الزرع، ويخرج الزرع من الحب؟! ويخرج النخلةَ من النَّواة، ويخرج النواةَ من النخلة؟! ويخرج البيضةَ من الدَّجاجة، ويخرج الدجاجة من البيضة؟!

فصانع هذا الصُّنع العجيب هو المستجمع لكل صفات الكمال،

والمتفضِّلُ بكلِّ إفضال، والمستحقُّ لكلِّ حمد وإجلال، بيده وحـــدَه تدبير أمر العالم العلويِّ والسُّفْليِّ، يؤتي الملك من يشاء، بيده الخير؛ إنه على كل شيء قدير.

ومن الذي يكفي ويغني شتى المخلوقات وسائر الكائنات منـــذ انبثاق الكون إلى ساعتنا هذه؟! فهذا برهانٌ باهرٌ على وجود خالق عليم حليم قدير، ودليل ساطع على غناه الشَّامل، وعلى أن خزائنَه لا تنفد وعطاءَه لا يُحدُّ؛ فرزقه وعطاؤه لا يُنْقصان مـــن خزائنـــه شيئاً، وإلا ما وسع خلقه برزقه! ولا كفاهم بنعمه وأغناهم بآلائه!

وإذا نظرنا إلى تكوين الشجرة نجد عجباً؛ نرى أن البذرةَ إذا وقعت في الأرض الرطبة، ثم مرَّ بها قدرٌ من الزَّمان ظهر فيها شقٌّ في أعلاها، وآخَر في أسفلها؛ فأما الشق العلوي فيخرج منـــه الجـــزء المتصاعد في الهواء من الشَّجرة، وأمَّا الشَّقُّ السُّفليُّ فينبثق منه الجزءُ الضاربُ في عمق الأرض منها، وتصير البذرةُ حلقةً للاتِّصال بـــين شقَّيْها العلويِّ والسُّفليِّ.

ثم إن هاهنا عجائب:

فمن المعلوم لدينا تبايُنُ وتضادُّ طبيعة الهـــواء وطبيعـــة بـــاطن الأرض بالكُلِّيَّة؛ فَمَن الذي أمر تلك البذرةَ العجماء، وألهمها فعلها وتكوين بعضها في مكان، وبعضها في مكـــان آخـــر، والمكانـــان متباينان في الصِّفات، ومتضادَّان في الخصال؟!

ونحن مع ذلك نرى هذا المخلوق شامخاً في جَوِّ السَّماء وراسخاً في باطن الأرض؛ يعيش دهراً من الزَّمان يعطي الفاكهـــة والطعـــام

والدَّواء والأخشاب عطاءً غير مجذوذ؛ وهذا يدلُّ بــيقين علـــى أن ذلك الصُّنعَ المحكمَ المتقنَ ليس بمقتضى الطبع والخاصية؛ بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتَّكوين والقهر والتَّسخير.

وهذه أرض طيبة: تمسك الماء، وتنبـــت العشـــب والـــزرع والشجر، وتلك أرض أخرى تلاصقها: لا تمسك ماءً، ولا تنبـــت شيئاً، وهذه أرض ثالثة: تمسك الماء لكن لا تُنبت شيئاً، وهذه ثمرة حمراء، وتلك خضراء، وأخرى صفراء؛ فمَن الذي خلـــق ونَـــوَّعَ، وأحكم وتَصَرَّف، وانقادت لحكمته سائر الكائنـــات، وخضـــعت لمشيئته كافَّةُ المخلوقات؟!

ومن الذي خلق الأنعامَ وذلَّلها للإنسان وسخر منافعهـــا لـــه؛ فنشرب منها لبناً خالصاً سائغاً من بين فرث ودم، ونأكـــل مـــن لحومها، ونلبس ونفترش من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ونحمـــل عليها أثقالَنا ومتاعَنا لنبلغ بها أقاصي البلاد؟! أفلا يَدُلُّ هذا علـــى وجود خالق عظيم قويٍّ قاهر حكيم محيط بجميع المخلوقات، قـــد علاهم وذلَّلَهم بأمره ومشـــيئته، وقهـــرهم وســـخَّرَهم بجبروتـــه وحكمته؟!

ومن الذي كَوَّنَ من ماء السَّماء وطينة الأرض عشـــباً ونباتـــاً مسخَّراً للأنعام؛ ثم ألهمها أكلَه والتَّغَذِّي عليه؛ فإذا به يتحـــوَّلُ في بطنها إلى لبن ودم وفرث؛ فإذا بكلٍّ واحد ينطلق إلى موطنه: اللبن إلى الضَّرع، والدم إلى العروق، والفرث إلى المخرج؛ وكلٌّ واحـــد من هؤلاء يشوب الآخر ولا يمازجه، ولا يُغَيِّرُ لونه ولا طعمـــه ولا

رائحته؛ وإذا باللبن يخرج خالصاً سائغاً للشَّـــاربين، فـــإذا طعمـــه الإنسان رَبَّى منه لحمه وعظمه؛ فَظَهَرَ بهذا أنَّ الأجســـامَ لا تـــزال تنقلب من صفة إلى صفة، وتَتَحَوَّلُ من صورة إلى صورة، لا يناسب ولا يشاكل بعضُها بعضًا؛ إنَّ في ذلك لآيات بيِّنات علـــى وجـــود خالق حكيم عليم يُدَبِّرُ شؤون الكون على وفق مصالح الخلق.

فسبحان من تَشْهَدُ جميعُ ذَرَّات الكون بكماله وقدرته، وبسمو عُلُوِّه وحكمته، له الخَلْقُ والأمرُ؛ تبارك اللهُ ربُّ العالمين.

وهاهنا مثال عجيب ندعو العاقلَ اللَّبيبَ أن يقفَ عنده متأمِّلاً دلالتَه وبرهانه؛ فهذه ورقة البرسيم تأكلها الدُّودةُ فتخرجها حريراً، ويأكلها النَّحْلُ فيخرجها عسلاً، وتأكلها الغنم فتخرجهـــا لبنـــاً، وتأكلها الخيلُ فتخرجها روثاً؛ فلو كان الأمرُ طبيعيًّا آليًّا — كمـــا يزعم الغافلون — لخرجت من جميعهم في صورة واحـــدة، وعلـــى صفة ثابتة؛ فلمَّا تعدَّدَتْ مخرجاتُها وتَنَوَّعَتْ تَحَوُّلاتُهـــا دلَّ ذلـــك بيقين على وجود خالق حكيم مصوِّر علـــيم قـــد خضـــعت لـــه المخلوقات ودانت لقهره الرقاب وأعجزت حكمته ذوي الألباب.

ومَن الذي أَلْهَم النَّحْلَ إلى اتخاذ بيوتها من الجبال والشـــجر؟! ومن الذي هداها إلى تناوُل الثَّمرات، فإذا بها تُخْرِجها من بطونهـــا شراباً مختلفاً طعمه فيه شفاء للنـــاس؟! متســـاوية الأضـــلاع ذات الشكل الهندسي الوحيد الذي إذا بُني به البناء لا ترى فيه خللاً ولا فرجاً ضائعة؟! إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

وها نحن نرى الطيرَ محلِّى بجناحَيْن يحلِّقُ بهما في جَوِّ الســـماء،

وإذ بنا نشاهد مخلوقات أخرى على شكله ومنواله، ولها مثـــل مـــا لديه كالدَّجاج والبطِّ؛ بيدَ أنَّ جَوَّ الســـماء لم يســـخَّرْ لحَمْلـــها؛ فعَجَزَتْ عن التَّحْليق والطَّير فيه؛ أفلا يَدُلُّ هذا على وجود خـــالق قاهر حكيم مريد عليم؛ إذ التخصيص برهان على وجود المخصّص وإرادته التي تستلزم وجود صفتي العلم والقدرة.

ومن الذي خلق المخلوقات في شكلها البديع، وحسَّنَ صورتَها على وجه يلائمها، ثم بثَّ فيها الهدايةَ والسَّـــعْي الحثيـــث إلى مـــا ينفعها، وتجنُّب ما يَضُرُّها حتى إن البهائمَ قد وهبت نوعاً من العقل به تميِّز بين المصالح والمفاسد؟!

وكل هذا تنطق به أحوال كافة المخلوقات حولنا، وتشهد بـــه سائر الكائنات من بيننا؛ أفلا يدل هذا على وجود خـــالق علـــيم رحيم خَلَقَ فسوَّى وقَدَّرَ فهدى؟!

شبهةٌ وجوابُها:

فإن قيل: لم لا يجوز أن تكون المخلوقات هي الـــتي أحـــدثت نفسها؟!

فالجواب: هذا محالٌ؛ لأنها جدلاً لو أَحْدَثَتْ نفسَها فهـــي لا تخلو من أن تكون موجودةً أو معدومةً حالَ الإحداث؛ فإن أحدثت نفسَها حال عدمها كان هذا محالاً؛ لاستحالة تولُّد الشـــيء مـــن العدم، ولأن الإحداثَ لا يتأَتَّى إلا من حَيٍّ موجود علـــيم قـــدير مريد، والعدم لا يصحُّ وصفُه بذلك.

ولو كانت موجودة فوجودها يغني عن إحداث نفسها، ويبقى

السؤال قائماً: من الذي أحدثها؟

وأيضاً لو جاز ذلك لجاز أن يحدث البناء نفسه. .. وهذا محال، وما أدى إلى المحال فهو محال؛ قال – تعالى – منكراً على من ظَـنَّ انبثاقَ الخلق من غير خالق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِـنْ غَيْـرِ شَـيْءٍ أَمْ هُـمُ الْخَالِقُـونَ * أَمْ خَلَقُـوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ﴾ [الطُّور: ٣٥-٣٦] .

دلالة الليل والنهار والشمس والقمر:

وهاهنا عدة أسئلة أترك الجواب عليها للقاريءِ الحريص علـى نجاة نفسه من ظلمات التَّيْه والشُّرود:

من الذي جعل الليلَ سَكَناً وجعل النَّهارَ مبصراً؟! ومن الـذي يولج النَّهارَ في الليل ويولج الليلَ في النَّهار يتعاقبان بينـهما علـى الكون، ولم يبغ أحدهما على الآخر فينفرد دونه بالظُّهور ويطـيح بصاحبه؟!

فمن الآمرُ لهما؟! ومن الحاجز بينهما؟!

ومن الذي جعلهما متعاونين على تحصيل مصالح الخلق مع مـا بينهما من التنافر والاختلاف؛ إذ وجود تلك الصـفتين بـين أي شيئين يورث بينـهما الفسـاد والاضـطراب، وعـدم التعـاون والاتساق؟!

ومن الذي أَمَرَ النهارَ في بداية ظهوره بشَقِّ ظلمة اللَّيل حـتى تراه وكأنَّه جدولُ ماء صاف في بحر كدر بحيث لا يختلط الصَّـافي

بالكدر ولا الكدر بالصافي؟! قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *﴾. (الأنعام: ٩٦).

ومن الذي أمر الشمس بالطُّلوع من المشرق، وبالغروب من المغرب؟! فلولا طلوعها لانسدَّت أبوابُ المعايش والأرزاق في البلاد، ولولا أفولها لما كانت السَّكينةُ والراحةُ والطُّمَأْنينة بين العباد.

دلالة السَّماء وما فيها من النجوم والكواكب:

من الذي جعل السَّماءَ سقفاً محفوظاً؟!

ومن الذي زَيَّنها بزينة الكواكب، وجعل القمر فيها نوراً وجعل الشمس سراجاً منيراً؟!

ومن الذي عَصَمَ السماءَ من الشُّقوق والفطور، حتى إنَّ العبدَ إذا نظر إليها لابتغاء العثور على ذلك انقلب إليه بصرُه خاسئاً وهو حسير؟!

ومن الذي جعل لنا النجومَ لنهتديَ بها في ظلمات البَرِّ والبحر حال أسفارنا وهجر أوطاننا؟ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *﴾ (الأنعام: ٩٧).

وصَدَق من قال:

ففي كل شيء لـه آيـة   تـدل علـى أنـه واحـد

الفصل الثاني

صفات الإله الحق

بعدما مَرَّ بنا من الأدلَّة البيِّنات والبراهين الباهرات على وجود رب الأرض والسموات، يحسن منا ويتحتَّم علينا أن نتعرف علـــى صفات ربنا، وعلى خصال إلهنا الذي لا تنبغي العبادة إلا لـــه، ولا الاستعانة إلا به، ولا التَّوَكُّل إلا عليه، ولا الطَّلـــب إلا منـــه، ولا الفزع إلا إليه، ولا التَّذَلُّل إلا بين يديه...

تلك الصفات والخصال التي استحقَّ بها الوحدانيـــة في تألُّهـــه والصَّمديَّة في التَّوَجُّه إليه دون غيره.

معرفةُ الإله:

الإلهُ لا بُدَّ وأن يَكونَ خالقاً مُنْعماً بسائر أنواع الـــنِّعَم والآلاء لجميع خلقه؛ إذ العبادةُ غايةُ التَّعْظيم؛ فلا يستحقُّها إلَّا مَنْ له غايـــةُ الإنعام والمنن؛ وهو الرَّبُّ الذي منه أصولُ النِّعم وفروعهـــا؛ قـــال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *﴾ [البقرة: ٢١].

وبذلك نعلم حقيقةَ العلاقة بين الألوهية والعبودية؛ فالإلهُ خَلَقَ عبادَه لِيَعْبدوه؛ فقد ضَلَّ ضلالاً مبيناً، وخرجَ عن مقتضَى الفطـــر والعقول؛ لحتمية أَوَّليَّة الخالق وضرورة حدوث المخلوق.

الإله لا بُدَّ وأن يكون عالماً بكلِّ شيء، ولا يغيب عن علمـــه

شيء، وإلا ما استطاع التمييزَ بين مَنْ يطيعه وبين مَنْ يعصيه، وكذا لا يَأْمَنُ عبدَه من بَطْشه ونقْمته بلا سبب مقتضٍ لسَخَطه؛ وذلـــك لَعَدَم كمال علمه وإحاطته بخَلْقه؛ وحينئذٍ لا توجَـــدُ فائـــدةٌ مـــن عبادته، ولا مضرة من عصيانه؛ فأيُّ فائدة تبقى في تَأَلُّه مَنْ يَجْهـــل قُرب المتوجه إليه!

وربُّ السماوات والأرض هو الأحدُ الصَّمَدُ الذي يَعْلَمُ السِّـــرَّ وأخفى، ويحيط بوساوس النُّفوس وخَلَجات الصُّدور أكثـــر مـــن إحاطة أصحابها بها، وسواء عنده ﴿مَنْ أَسَـــرَّ الْقَـــوْلَ وَمَـــنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ *﴾

[الرعد: ١٠].

فإن قيل: أين البرهانُ على ما تقول؟

فالجواب: قد مَرَّ التَّدْليلُ فيما سبق علـــى تَفَـــرُّد الله بـــالخلق والقهر، ومن أبدع شيئاً محكماً من العدم يكون ضرورةً عالماً بـــه، ومحيطاً بكنهه.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملـــك: ١٤].

وخالق المخلوقات كلِّها بالاختيار متَّصفٌ بالعلم بهم والقـــدرة عليهم.

أمَّا الأوَّل: فلأنَّ الاختيارَ مشروطٌ بالعلم، ولا يوجد المشروط دون شرطه.

وأما الثَّاني: فلأنَّ المختار للشيء لو كان غير قادر عليه لتعــذَّر مرادُه، وقد وجدت الخلائقُ كلُّها بغير تعذُّر؛ فدلَّ ذلك علـــى أنَّ خالقَها قادرٌ عليها ومحيط بها؛ لأنَّ إرادةَ الشيء مشروطةٌ بالعلم به والقدرة عليه؛ فإذا وُجد الشَّيءُ دَلَّ ذلك بيقين على أنَّ موجدَه عالم به وقادر عليه.

وأعود مذكِّراً بدلالة خلق النُّطف في الأرحام؛ تلك الدِّلالة التي لو تدبَّرها الإنسانُ بعين الاعتبار لَعَرَفَ الطَّريقَ إلى الـــرَّحمن وذاق طعم الإيمان، واهتدى إلى طريق الجنان، وظفر بسواء الصِّراط؛ فلا جرم أن الذي يتعهد النطف الميتة في غيابات الأرحـــام ويكوِّنهـــا ويصوِّرها ويطوِّرها ويقضي عليها كيفما يشاء حتى يبـــدع منـــها إنساناً سَوِيًّا حكيماً عليماً قديراً، فإنَّه بلا ريب يكون إلهاً حكيمـــاً عليماً قديراً لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السَّـــماء؛ قـــال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٥- ٦]

الإلهُ لا بُدَّ وأن يكون كاملاً في ذاتـــه وفي أسمائـــه وصـــفاته وأفعاله؛ إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال المفقود ليسدَّ به نقصه؛ ومثل هذا لا يســـتحقُّ أن يكون إلهاً معبوداً؛ فضلاً عن أن يكون ربًّا قـــادراً يُرجَـــى نفعُـــه، ويُخشى عذابُه.

ونحن نرى العالم العلويَّ والسُّفليَّ كلاهما يسير علـــى نســـق

واحد، وأمرهما مُدبَّرٌ بحكمة بالغة، ولم نعلم حاجةً لهما لأيِّ مخلوق ألبتة منذ إبداعهما؛ بل خالقهما هو القـــائم عليهمـــا بـــالكلاءة والرِّعاية، والمدبر لشؤونهما بما يعود بالصَّلاح عليهما منذ فطرهمـــا إلى يومنا هذا؛ بل ونرى الكون كلَّه مستسلماً لخالقـــه، ومنقـــاداً لصانعه، ومسخَّراً لقاهره بسهولة ويسر وانسجام عجيب.

وهذا كلُّه يدلُّ على عظمة الخالق وكماله في ذاتـــه وأسمائـــه وصفاته وأفعاله، وعلى حكمته الباهرة وقيُّوميَّته الشَّـــاملة وقدرتـــه القاهرة، وعلى غناه المطلَق التَّامِّ؛ فهو لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك ولا وليٌّ من الذُّلِّ، ولا معـــان وظهـــير في شيء من تدابير خلقه وتنظيم ملكه؛ وبذلك حقَّ علينا أن نكبِّـــرَه تكبيراً وننزِّهه تنزيهاً.

الإله لابدَّ وأن يكون متَّصفاً بالقدرة المطلقة التي لا يعجزهـــا شيء، وإلا لزم عجزُه وبطل تألُّهه.

وآثار مخلوقات ربِّ الأرض والسَّماوات في كونه تدلُّ علـــى قدرته التي لا نهايةَ لها، ولا حَدَّ يحدُّها..

فمَن الذي يمسك السَّماء أن تقع على الأرض؟

ومن الذي خلق الجبال الشَّامخات الرَّاسيات؟

ومن الذي قهر السَّحاب المسخَّر بين السَّماء والأرض؟

ومن الذي بيده التَّحَكُّم في نواميس الكون؟

قل: الله. ثم ذَر الجاحدين والمنكرين في خَوضهم يلعبـــون، وفي

غَيِّهم يعمهون.

الإله لابدَّ وأن يكون غنيًّا عن كلِّ ما سواه، وتكــون كـــلُّ المخلوقات وكافَّة الكائنات في حاجة إليه وتَعَطُّش لقَيُّوميَّتــه، وفي فقر لغناه؛ فأروني مخلوقاً في هذا الكون مســتغنياً عـــن خالقـــه، وأعلموني بمخلوق احتاج إليه فاطرُه؛ قـــــال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر: ١٥).

الإله لا بدَّ وأن يكون مالكاً لجلب النَّفع ولدفع الضّــرّ حــتى يتضرَّع إليه العباد بالدَّعوات المخلصات في الرَّهبات والرَّغبـــات أن يفيض عليهم بالخيرات، ويحفظهم من الشُّرور والمعضلات ويرفـــع عنهم ما حلَّ بهم من النَّكَبات.

الإله لا بدَّ وأن يكون قاهراً لجميع الخلق، ومهيمناً على ســـائر الكون؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَـــبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٨)؛ فهو الذي خضعت له الرِّقاب، وعنت له الوجـــوه واستكانت، وتضاءل لعظمة كبريائه ولسُمُوِّ جلاله كافَّةُ الخلائـــق والأشياء، ودانت لقَهْره واستسلمت لحكمه وعُلُوِّه.

الإله لا بد وأن يكون: حيًّا، سميعاً، بصيراً، حكيماً، وأن يكون أَوَّلاً ليس قبله شيء، وآخراً ليس بعده شيء...

ودليل ذلك ما سلف ذكرُه من البَيِّنات البَيِّنة والبراهين الباهرة والحُجَج الدَّامغة؛ فهل بعد عرض الأسماء الحسنى والصفات العلـــى التي ينبغي أن يتَّصفَ بها الإله الحقُّ المعبود يبقى أدنى شَكٍّ في أنَّه " لا إله إلا الله، ولا معبود بحقٍّ سواه ".

الفصل الثالث:

الأدلَّة العقليَّة على وحدانية مدبِّر الكون ووجوب تألهه دون غيره

الحمد لله الكريم المنان على كرمه ومنه بظهور البرهان وجـــلاء الفرقان على وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وعلى بطلان تألُّه كـــل معبود سواه.

شبهة وجوابها:

ولكن تلجيماً لفيِّ الشَّيطان اللَّعين الذي قد يأتي نافثاً في روع بعض طلبة الهداية الباحثين عن الصراط المستقيم والطريق الســـديد لخلاص النفس من الضلال والغواية قائلاً: قد سلَّمنا بوجود الخالق المعبود، ولكن أين الدليلُ على تَفَرُّده وحدَه بتدبير الكون؟ بل قامت آلهةٌ شَتَّى متَّصفة بالأسماء الحسنى ومتحلِّية بالصِّفات العلى التي انبثق منها مفهوم التَّأَلُّه والعبادة بالتَّعاون والاتِّساق في السَّــيطرة علـــى المخلوقات والهيمنة على الكائنات؛ فهذا إله المحبة، وذاك إله الرِّزق، وآخر إله النَّصر...

فاحذر أيُّها المحبّ للحقّ والباحث عن طريقه مـــن الهمـــزات الشَّيطانيَّة والوساوس الإبليسيَّة؛ حتَّى لا يظفر بك غارقاً في ظلمات

الشَّكِّ وتائهاً في بحار الضَّلال ومتردِّياً في غيابات الأباطيل، ومتقلِّباً على أشواك الحيرة والتَّلبيس.

وإليك الأدلة والبيِّنات على وحدانية ربِّ الأرض والسماوات في تدبير ملكه، وقهر مخلوقاته، مع وجوب عبادته وتألُّهه دون أحد سواه:

لقد تمَّ التَّدليل سابقاً على أنَّ الإلهَ الذي تنبغـــي لـــه العبـــادة والطاعة يجب أن يكون قادراً على كلِّ شيء وعالماً بكـــلِّ شـــيء ومُتَّصفاً بكافَّة صفات الكمال والإجلال؛ فالقولُ بوجود إلهين اثنين يَسْتلزم اتِّصافَ كلِّ واحد منهما بالقدرة المطلقة.. وعليه:

فإما أن يكون كلٌّ واحد منهما قادراً على صاحبه، أو لا يقدر أيّ واحد منهما على الآخر، أو يكون أحدهما قادراً على الثّـــاني؛ فالأوَّلُ محالٌ؛ لأنَّ النَّقيضين لا يجتمعان، وهما هنا: القدرة والعجز؛ إذ كيف يكون كلٌّ واحد منهما قادراً على الآخر، وفي ذات الوقت مقدوراً عليه منه؟!

وإن كان الثَّاني: فقد ثبت عجزُهما وما يترتَّب عليه من بطلان تَأَلُّههما وخلوّ الكون من إله مسيطر؛ وهذا أيضاً محالٌ.

وإن كان الثالث: فقد ثبت ألوهية القادر دون الثانين؛ لكمال قدرته وعجز المقدور عليه؛ فثَبَتَ أنَّ للكون إلهاً واحداً قادراً، لا إله غيره، ولا معبود سواه.

الإله لا بدَّ وأن يكون: أولاً ليس قبله شيء؛ لأنَّ ثبوتَ شـــيء قبل وجوده يستلزم شذوذه وخروجه عن علمه وقدرته وتكوينـــه؛

وهذا طعنٌ في تألهه؛ لقصر علمه وقدرته وحدوثه بعد عدمه؛ ومـــن ثَمَّ كان لزاماً أن يكون الإله أَوَّلاً ليس قبله شيء.

وهذا برهان باهر ودليل ساطع على وحدانية الرَّبِّ والإله؛ لأنَّ صفةَ الأَوَّل لا تثبت إلا لواحد؛ إذ لو تعدَّدت الآلهة لتعثَّرت جميعها من تلك الصِّفة، ولزم التَّسَلسل؛ ومن ثَمَّ بطلان التَّأَلُّـــه، ويبقـــي الكون بلا مدبّر ولا مسيطر؛ وهذا محال.

ولا خروجَ عن هذا إلا بإثبات إله واحد لا إله غيره ولا معبود سواه؛ أوَّل ليس قبله شيء، وآخر ليس بعده شيء؛ ولو جـــاز — جدلاً — وجودُ إلهين متساويين في كافَّة الأسماء والصفات، فلا بُـــدَّ حتماً من وجود صفة مفرِّقة بينهما؛ حتى نستطيع نحن البشر التَّعرُّفَ عليهما والتَّفريقَ بينهما؛ إذ عبادةُ المجهول ضَرْبٌ من المحال والسَّـــفَه والجنون.

إذاً لابُدَّ من قيام الصِّفة المميِّزة بينهما؛ وهي إمَّا أن تكون صفةَ كمال، أو صفةَ نقص؛ فإن كانت الأولى فقد تميَّزَ وعلا مَنْ قامت به دون الثَّاني بالألوهية والطاعة ووجوب العبادة، وإن كانت الثانية فقد قام الدَّليلُ على بطلان تألُّه المتَّصف بها دون صاحبه؛ فعلى كلِّ الوجوه لا يبقى إلا إله واحد لا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

وأيضاً لو كان هناك جسم، وأراد كلٌّ من الإلهـــين الانفـــراد بتحريكه في وقت واحد (مثلاً)، فإمَّا أن يستطيعا ذلـــك معـــاً، أو يعجزا عنه، أو ينفرد أحدهما بالقدرة عليه:

فالأول محال؛ لأنَّ التَّفَرُّدَ بالفعل في وقت واحد يستلزم صدورَه

من واحد.

والثَّاني محال؛ لأنه دليلٌ على بُطلان تألُّهِهما، ومـــن ثمَّ خلـــوّ الكون من مدبِّر ومسيطر.

الثالث: دليل على تَأَلُّه القادر، ووجوب عبادته دون العاجز.

وأيضاً نحن نعلم يقيناً أنَّ الشركةَ عيبٌ ونقصٌ، وأنَّ الوحدانيةَ والتَّفَرُّدَ كمالٌ وإجلال؛ وهذا مشاهَدٌ ومحسوسٌ؛ فها هـــم ملـــوكُ الدُّنيا يكرهون الشَّركة في الملك الحقير المحدود أشدَّ الكراهية، ونرى أنَّه كلما كان الملك أعظم قوةً وبأساً كانت نفرتُه عـــن الشَّـــركة والنِّدِّيَّة أشدَّ وأبعد.

فما ظنُّكم بهذا الكون العظيم الذي لا يحيط بـــه إلا خالقـــه ومالكه؟!

إذاً لابُدَّ لكلِّ واحد من الإلهين أن يَسْعى حثيثاً للانفراد بالملك والهيمنة على الكون؛ تحقيقاً للكمال وهرباً من النُّقْصان؛ فالقـــادرُ منهما على الآخر يكون إلهاً مهيمناً، والآخر يكون عبداً مملوكـــاً، وإن عَجَزَ كُلٌّ واحد منهما عن قَهْر صاحبه فقد ثبـــت عجزهمـــا وبطلان تألُّههما؛ ومن ثَمَّ يبقى الكونُ بلا إله مدبِّر مسيطر؛ وهـــذا محالٌ في بداهة العقول كما دلَّلْنا مراراً عليه.

ولا مخرجَ من ذلك إلَّا بإثبات إله واحد قاهر مســـيطر لا إلـــه غيره ولا معبود سواه؛ إذاً فالقولُ بتعدُّد الآلهة دليلٌ على بُطلان تَأَلُّه الجميع، وأيضاً لو كان للكون خالقان متكافئان، لكان لكلِّ واحد منهما خلقاً وفعلاً؛ وحينئذ فلن يرضى أيُّ واحد منهما بشركة الإله

الآخر؛ بل إن قدر على قهره والتَّفَرُّد بالإلهيَّة دونه فعل، وإلا انفرد بخَلْقه وذهب به؛ كما ينفرد ملوكُ الدُّنيا بممـــاليكهم إذا لم يقـــدر المنفرد على قهر خصمه والعُلُوّ عليه؛ وهذا يستلزم اضطرابَ الكون واختلال نظامه وتقويض أركانه وفساد إحكامه.

والمشاهَدُ انتظامُ الكون نظاماً يُبْهر العقولَ؛ فانظر إلى الشَّمس والقمر والنجوم والكواكب، وإلى السَّماء والأرض واللَّيل والنَّهار؛ فإنها منذ خلقت وهي تسير على نظام واحد، وعلى ترتيب محكم، وكلُّها مسخَّرةٌ بالقدرة ومدبَّرَةٌ بالحكمة لمصالح الخلق كلِّهم؛ فـــلا يقتصر نفعُها على أحد دون أحد، ولن ترى فيها خَلَلاً ولا معارضةً في أدنى تَصَرُّف؛ فانتظامُ العالم العلويِّ والسُّفليِّ وارتبـــاط بعضـــه ببعض مع جَرَيانه على نظام محكم لا يفسد ولا يختلـــف مـــن أَدَلِّ الدَّلائل وأبهر البراهين على أنَّ مدبرَ الكون واحدٌ "لا إلهَ غيره، ولا معبودَ بحقٍّ سواه"؛ فكما يستحيل أن يكون للعالم ربَّـــان خالقـــان متكافئان، فكذلك يَستحيل أن يكون له إلهان معبودان؛ قال تعـــالى في محكَم التَّنزيل:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَـــهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَـــالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

واختتم هذه الدِّلالة بذكر خبر النَّبيِّين والمرسلين حـــتى يُعلـــمَ مطابقةُ صريح المعقول لصحيح المنقول؛ فأقول: وهـــذا النَّـــاموس الأعظم الذي أشرقت الأرضُ بنوره وأباد ظلماتها، وهو المتمثِّل في

إرسال الرُّسل وإنزال الكتب؛ فقد أجمعوا جميعاً على وحدانية الخالق وتفرُّد ألوهيَّته ووجوب عبادته دونَ أحد سواه.

فإن كان يوجد إله غيره فأين رسله؟ وأروني كتبه، وأعلمـــوني بخَلْقه الدَّالّ عليه!

الفصل الرابع

الأدلَّةُ على بطلان تألُّه غير الله

بعد بيان الأسماء الحسنى والصِّفات العلى التي ينبغي أن يتَّصفَ بها المعبود حتى يصحَّ تألُّهُه ويستقيم التَّوجُّه إليه ويجب التَّذَلُّل بـــين يديه ويتحتَّم الفرار إلى رضاه ومستقرِّ رحمته والهرب من ســـخطه وأليم عقابه يَجْدُرُ بنا - نحن العبيد - أن نتعرَّفَ ونعي الأدلَّة على بطلان تَأَلُّه كلِّ ما يُعْبَدُ من دون الله؛ حتى يكمل البيـــان، وتـــتمَّ الفائدة، وينفتح باب الهداية، وينغلق باب الغواية؛ ليصبح كلُّ إنسان حسيبَ نفسه، وليحيا من حيَّ عن بيِّنة، ويهلك مَنْ هَلَكَ عن بيِّنة.

دليلُ الإحداث:

قد صحَّ ضرورة إحداث كلّ ما في الكون من الإنس والجـــنّ والملائكة والحيوان والجماد، وكلُّ ما ثَبَتَ حدوثُه بعد عدمه كان لا محالةَ مخلوقاً مربوباً مسخَّراً لخالقه ومالكه، وحَصْحَصَ برهانُ بطلان تَأَلُّهه؛ فهل يستقيم بعد هذا أن يتَّخذَ العاقل اللَّبيب ممَّن هذا صـــفته إلهاً يُعبَد وربًّا يدعى ويرجى، ويترك عبادةَ الخلَّاق العلـــيم القـــدير القاهر الأوَّل والآخر ربّ كلِّ شيء ومليكه.

كلُّ ما ثَبَتَ قهرُه وتَذَلُّله فقد بطل تألُّهـــه، والخلـــق جميعـــاً مقهورون ومذلَّلون لقاهر حكيم عزيز عليم.

الحاجة إلى الأشياء تستلزم الفقرَ والعجزَ؛ وهذا دليل على بطلان التَّألُّه؛ لأنَّ الذي لا يقوم بنفسه يستحيل عليه أن يقومَ بأمور غيره.

ولذلك أبطل اللهُ في القرآن العظيم تَأَلُّهَ عيسى بن مريم وأمِّه بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (المائدة: ٧٥).

إذا كان العابدُ أكملَ حالاً من المعبود دلَّ ذلك على ضلال العابد وعلى بطلان تألُّه المعبود؛ وهذا من أنصع الأدلَّة على زيف وإفك كلِّ ما يُعبَدُ من دون الله؛ لأنَّ الإنسانَ أكملُ حالاً من سائر المخلوقات؛ فقد خَلَقَه ربُّه في أحسن تقويم، وعلى أجمل صورة، وفي هيئة سَويَّة لا اعوجاجَ فيها.

وأسوق في هذا المقام مثالاً – ليكمل البيان وتتمَّ الفائدة – متمثِّلاً في مقارنة بين الإنسان والصنم؛ فالإنسانُ له أذنٌ يَسْمَعُ بها، وعين يُبصر بها، ويد يبطش بها، ورجل يسعى بها..

وأما الصنم فله أذنٌ لا يسمع بها، وعينٌ لا يبصر بها، ويدٌ لا يبطش بها، ورجلٌ لا يسعى بها...

ومن هذه المفاضلة ينجلي البرهان الباهر على بطلان عبادة الأصنام؛ لكمال عابديها عنها.

واشتغال الأفضل بعبادة الأخسّ الأدون جهلٌ صرف، وضلالٌ محض، ومصادَمةٌ للعقول الصَّحيحة، وللفطَر المستقيمة.

شبهة وجوابها:

نعم؛ قد يَعترض الآن شيطان من شياطين الغواية بزخرف مـــن القول الباطل قائلاً:

نحن لا نعبد الأصنامَ لذاتها؛ بل لتقرِّبنا إلى الله زلفى؛ فهي رمزٌ من رموز الإله في الأرض، ونحن لا نعبد الرَّمزَ؛ بل نعبد المرموزَ له في صورة الرَّمز!!

أقول مستمدًّا من الله العونَ والسَّدادَ:

قد تقدَّمت الحجج العقليَّة والبراهين الفطريَّة على وجوب عبادة الفاطر وحده، وعلى البراءة من كلِّ ما يُعبد من دونه؛ إذاً فتلـــك الدَّعوى الشَّيطانيَّة ليس لها قدمُ صدق في الفطر والعقول.

وأما الوحي والسَّمع فقد أجمعت الكتب الرَّبَّانيَّة والرِّســـالات الإلهيَّة على أنَّ حرمةَ هذا الشِّرك وقبحَه فوقَ كلِّ حرمة وقبـــيح؛ كيف لا وقد كانت أولَ كلمة تقرع آذان المشـــركين مـــن قبـــل أنبيائهم ورسلهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

ولو جاز – جدلاً – صحَّة تلك الدَّعوى من قبـــل الـــوَحي والسَّمع لكان التَّناقض والتَّضارب بين حجج الله وبيِّناته؛ إذاً كيف يخلق الله عبادَه بفطَر وعقول مجبولة على وجوب عبادته، والـــبراءة من كلِّ ما يُعْبَد من دونه من أجل أن يُخلصوا له العبادةَ، وينخلعوا ويكفروا بكلِّ معبود سواه، ثم بعد هذا يُرسل إليهم رسلَه بنقـــيض مقتضى حجج فطرهم وعقولهم؛ فيقع العباد أسرى حـــائرين بـــين التَّعارض والتَّناقض لحجج الله وبيِّناته؛ ومن ثَمَّ يكون الطريقُ ممهَّداً لأن تتخطَّفهم الشَّياطين وتهوي بهم في مكان سحيق يعجُّ بالرِّيَـــب

والشُّكوك في الحجج الرَّبَّانيَّة والمطالبة الإلهيَّة التي ما خُلق الإنســان إلا للقيام بها، ولا ريب أنَّ هذا سَفَه وظلم، والله منزَّه عنهما وعن كلِّ سيئ وقبيح؛ فهو العليم الحكيم ذو حكمة بالغة ورحمة واسعة.

وأعود فأقول لأرباب هذه الدعوى الخبيثة: هل عندكم مــن علم فتخرجوه لنا أم على الله تفترون ؟! ومن الشياطين تســتمدون ؟! ومن أهوائكم وحظوظ نفوسكم تنطلقون ؟! فالله يحكم بيننــا وبينكم بحكمه وهو خير الحاكمين.

ثم يعود بنا الكلام إلى ما كنَّا فيه فنقرِّر ونقول:

قد ثبت جهلُ كافَّة المخلوقات العاقلة والعجماء بالإحاطة بعلم الغيب والعلم بوقت نزول المطر ومواقع القطر، وتبيَّن عجزُهم عــن حمل الجبال، وتسخير السَّحاب، والتَّحَكُّم في الرِّياح، ومن ثبــت جهلُه أو عجزُه فقد بطل تألُّهُه، واستحال كونُه إلهاً معبوداً صحيحاً نافعاً.

بطلان تعدد الآلهة:

أيُّ ديانة تتعدَّد فيها الآلهة تكون ديانةً باطلةً وملَّــةً ســاقطةً؛ وإليكم الدَّليل والبرهان:

فالإلهُ لا بُدَّ وأن يكون عالماً بكلِّ شيء وقادراً على كلِّ شيء؛ فإن كان أحد تلك الآلهة متَّصفاً بذلك فيجب أن يستغني به عــن كلِّ ما هو دونه؛ لأنَّهم في قبضته وتحت قهره، ولكمــال صــفة الوحدانيَّة، ونقصان صفة الشَّركة والنِّدِّيَّة.

وهذه الصفات لا تثبت إلا لواحد، ويســـتحيل وجودهـــا في اثنين؛ وإلا شَذَّ وخرج كلٌّ واحد منهما عن علم وقدرة صـــاحبه؛ وبالتالي يثبت عجزُهما وجهلُهما، وما ينبني على ذلك من بُطْــلان تَأَلُّههما.

شبهة وجوابها:

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون كلٌّ إله من تلـــك المعبـــودات مختصًّا بشيء من القَهْر على بعـــض المخلوقـــات فيعبـــد لـــذلك الاختصاص؟

فالجوابُ: لا يخلو هذا الاختصاصُ من أن يكون مـــن كَسْـــبه وصُنْعه أو هبة من إله قاهر مهيمن على سائر الكون [1] غيره.

فإن كان الثاني: فقد بطل تألُّهُه من دون خالق الكون؛ لأنَّه هو الذي وَهَبَه – بزعم المشركين – هذا الاختصاص؛ إذاً فهو قـــادر على سَلْبه؛ فما دام الأمر منه وإليه فالواجب المتحتِّم إثباتُ تَأَلُّهـــه دونَ غيره.

وإن كان الأول: فهو يَسْتَلزم بالضَّرورة حصولَ الاضـــطراب والفساد في الكون، وعُلُوَّ الآلهة بعضها على بعض مع ذهاب كـــلٍّ

---

(1) وقد احترزت بقيد الهيمنة علي سائر الكون قطعاً للتسلسل المطلق الذي لا حدَّ له ينتهي إليه؛ لأنَّه لو فُرِض – جدلاً – هبة هذا الاختصاص من أعلى منه رتبـــةً إلا أنَّه لا يملك السَّيطرة المطلقة والهيمنة الكاملة على الكون، لوجدنا الاستفسار قـــد عاد عليه أيضاً؛ وهو: " لا يخلو هذا الاختصاص من أن يكون من كَسْبه ، أو من إله قويٍّ مهيمن غيره ... وهكذا حتى نصل إلى إله واهب غير موهوب، قاهر غير مقهور، حاكم غير محكوم ....

منهم بما خَلَقَ؛ تحقيقاً لصفة كمال الوحدانية، وهرباً من نُقصـــان صفة الشَّركة والنِّدِّيَّة.

والمشاهَدُ: إحكامُ العالم العلويّ والسُّفليّ إحكاماً يبهر العقول، مع جريانه على نسق واحد متَّسق بتجانس شديد بين كافَّة ما فيـــه من المخلوقات..

وهذا دليل عزيز وحجَّةٌ قاهرة على أنَّ مدبرَ الكون واحـــدٌ في ربوبيَّته وتألُّهه، ومتفرِّدٌ بالكمال في أسمائه الحسنى وصفاته العلى، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا التذلل إلا بين يديه، ولا الطاعة إلا لأمـــره وحكمه.

ويذكر القرآن دليلاً على بطلان الدِّيانة وسقوط الملَّة التي تتعدَّد فيها الآلهة؛ وذلك على لسان إبراهيم الخليل– عليه السلام– مخاطباً أباه قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *﴾. [الأنعام: ٧٤].

الفصل الخامس

الأدلة العقلية على البعث والنشور

مبدأ الثواب والعقاب:

لا شَكَّ أنَّ النُّفوسَ السَّوِيَّةَ والفطَرَ السَّديدةَ والعقولَ المستقيمةَ تقطع بضرورة مآب العبيد بعد موتهم لحياة أخرى فاصلة بينـــهم؛ يجازَى المحسنُ فيها على إحسانه، ويعاقَب المسيء على سيئاته.

ولقد اجتالت الشَّياطينُ كثيراً من الأُمم والقرون عـــن تلـــك الحقيقة الرَّاسخة في قرار فطر وعقول الخلائق، فحجبتها بحجـــب الشُّبُهات، وأفسدتها بران السَّيِّئات، وأحرقتـــها بشـــهب الإفـــك والبهتان.

وترتَّب على هذا المعتَقَد الخبيث حياةٌ لأهله تماثل حياةَ الأنعام؛ بل أضلّ منها سبيلاً؛ فما دامت الحياةُ تنتهي بالموت، فلماذا أنتـــهي عن الظُّلم والبغي طالما أنِّي أملك قوةً ومنعـــةً؟ ولمـــاذا لا أطلـــق لشهواتي وملذَّاتي العنان بلا قيود ولا حدود؟ ولماذا يعـــيش النـــاس مكبَّلين بسلاسل من حديد صنعوها بأنفسهم بلا طائل من ورائهـــا متمثِّلةً في الحلال والحرام، وفي المعروف والمنكر؟ ولمـــاذا لا ينـــزو القويُّ على الضعيف كنزو الشَّرائس المتوحِّشات مـــن الوحـــوش الضَّاريات على ضحاياها فيرتوي من دمائه، ويتغـــذَّى بلحمـــه،

ويتشهّى بعرضه؟ ولماذا، ولماذا، ولماذا... ؟! طالما أنَّ الموتَ نهايـــةٌ لكلِّ حيٍّ بلا قصاص ولا حساب للخلائق جزاءً وفاقاً علـــى مـــا قدَّموا من أعمال وأقوال وأفعال في حال حياتهم.

وكأني الآن بشيطان ينغض برأسه مستهزئاً، وينفث بســـمومه قائلاً:

أتزعم أنَّنا إذا كنَّا عظاماً ورفاتاً أئنَّا لمبعوثون خلقـــاً جديـــداً؟ هيهات لما تريد؛ لقد وعُدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل؛ إن هذا إلَّـــا أساطير الأولين، وما نحن بمخرجين.

وإليك أيُّها النَّاصح لنفسه والمنقِّب لها عن طريق النَّجاة الأدلَّـــةُ والبيِّنات على إمكان- بل ووجوب- البعث بعد الممات لحتميـــة الحساب والقصاص ووجوب الفصل بين العباد.

الإنشاء والإعادة:

إن الذي خلق الإنسان من العَدَم قادر على إعادته وبعثه بعـــد موته؛ لأنَّنا نعلم بضرورة العقل أنَّ تكوينَ الشَّيء من الشيء أيســـر وأهون من تكوينه من العدم؛ فلو تَدَبَّرَ الإنسانُ في أَوَّل نشأته ليصل إلى إمكانية ووجوب إعادته، لوجد نفسه السَّويَّة مطمئنةً لاهتدائها لأرسخ مرتكز من مرتكزات عقلها وفطرتها؛ فالعقلُ قـــاطعٌ بـــأنَّ المبدعَ للنَّشأة الأولى للخلائق على غير مثال سابق لها، تكون النشأة والإعادة الثانية له أيسر وأهون عليه؛ قال تعـــالى: ﴿أَوَلَـــا يَـــذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾.

(مريم: ٦٧)، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ

مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٨-٧٩).

من المعلوم ببداهة العقول أنَّ الذي يقوى على حمـــل قنطـــار يكون أقوى وأقدر على حمل أوقية؛ وعليه فلا جرم أنَّ خلقَ أجسام ضعيفة مثل الإنسان من عظام بالية قد آل إليها جسده بعد موتـــه تكون أيسرَ وأهونَ من خلق أجسام عظيمـــة مثـــل الســـماوات والأرض وإبداعها من العدم المحض؛ فعندما ننظـــر إلى الســـماوات والأرض وإلى بديع صنعهما وعظمة وسعة وإحكام خلقهمـــا مـــع استسلامهما لأمر خالقهما، نقطع بقدرته تعالى على بعث الناس من قبورهم للوقوف بين يدي ربِّهم؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَـــرَوْا أَنَّ اللَّـــهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا *﴾ (الإسراء: ٩٩).

وهذا أمرٌ جليٌّ لا ينبغي فيه ريب، وريب المرتابين فيه مكابَرة وإعراضٌ عن النَّظَر.

إنَّ الذي خلق الإنسانَ من نطفة[١] ميتةً لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، ثم حَوَّلَها إلى علقة[٢]، ثم نقلـــها إلى مضـــغة[٣] مخلَّقـــة ومصوَّرة على صورة الآدميِّ وعلى هيئته الكاملـــة، ثم نفـــخ فيـــه الرُّوح، ثم أذن له في الخروج إلى عالم الوجود على حالة لا يعلـــم

---

(١) أي : المني .

(٢) قطعة من الدم الأحمر .

(٣) قطعة لحم صغيرة ، قدر ما يمضغ .

فيها شيئاً، ثم طَوَّرَه وكَمَّلَه وصَيَّرَه على حالة يكون بها أكمل المخلوقات وأحكم الكائنات، ثم رَدَّه بعد ذلك إلى حالة الشَّيخوخة وأرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علمه شيئاً حتى يؤول أمره إلى حالة أشبه ما تكون بحالة ولادته، ثم إذا أراد موته في أي لحظة من لحظات عمره استسلم وانقاد ولم يستعص على خالقه؛ إنَّ الذي خلق هذا وأبدعه وأحكمه وقهره لقادر على إحياء الإنسان بعد موته وفنائه.

وكم مررنا على أرض ميتة قد تشقَّقت وذبلت وفارقتها الحياة حتى صارت في عداد الأموات، فإذا بأنفسنا تخاطبنا متعجِّبةً: أنّى تحيا هذه بعد موتها؟!

فإذا بالسَّماء تتفتَّق بماء الحياة عليها، فتحيا به وتهتزّ وتربو وتنبت من كلِّ زوج بهيج؛ إنَّ الذي أحيا هذا المخلوق القويَّ الأبيَّ بعد موته لقادرٌ على إحياء الإنسان الضَّعيف الذَّليل بعد هلاكه وفنائه؛ قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥- ٧].

البعثُ بين الإمكان والوجوب:

الآن ألمح عيناً يستطير منها الشَّرر ولساناً مســـموماً لشـــيطان رجيم يصرخ قائلاً: ما مَرَّ من الأدلة على إمكان البعث والنشـــور، فأين الدليل على الوجوب وحتميَّة الوقوع؟

أقول وبالله التوفيق:

خَلْقُه دلَّ على قدرته، وقدرته دَلَّتْ على علمـــه– وإلا كـــان عاجزاً، وعلمُه دَلَّ على حياته، وحياتُه دَلَّت على وجوده، وتَنَـــوُّعُ مخلوقاته وتبايُن صفاها دلَّ على إرادته، وإتقان صـــنعها دلَّ علـــى حكمته، وانتظام العالم العلويّ والسُّفليّ مع اتِّساق حركات الكون واستسلامه دلَّا على قَهْره ومُلْكه وتَفَرُّده...

والملك الحكيم القاهر يستحيل عليه أن يترك رعيَّته سدى دون أمر ونهي، أو أن يخلقهم عبثاً، ولا يجوز في حكمته التَّســـويةُ بـــين المطيع والعاصي، ولا بين المظلوم والظالم، ولا بين الأمين والخائن...

وها نحن نرى الظالم يموت ظالماً، والمظلوم يمـــوت مظلومـــاً، والغاضب يموت غاضباً، والمغضوب يموت مغضوباً، والقاتل يمـــوت قاتلاً، والمقتول يموت مقتولاً؛ إذاً لا بُدَّ من حتميَّة البعث والنُّشـــور للحساب والقصاص ووجوب الفصل بين العبـــاد؛ قـــال تعـــالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّـــهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (المؤمنون: ١١٥– ١١٦).

الفصل السادس

الأدلة العقلية على بعثة الرسل

بعد بيان الأدلة الجليَّة على وجود ربِّ البريَّة، وما علمناه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى التي انبثقت منها وحدانيةُ تألُّهه ووجوب عبادته، وحصحص بها بطلان تألُّه وعبادة غيره كائناً من كان، وقطعنا بتفرُّده سبحانه في تدبير ملكه، ووحدانيته بالقيام على مصالح خلقه، ثم تيقَّنَّا بوجوب المآب إليه بعد الممات؛ لحتميَّة الفصل بين العباد، ولتُجْزَى كلُّ نفس بما كسبت...

كيف نعبد الله؟

أرى الآن سؤالاً ملحًّا قد سيطر على العقول، وملك زمامَ الفكر، وتفرَّدَ بوساوس الصُّدور:

كيف نعبد ربَّنا وخالقَنا ومالكَنا؟

وما السَّبيل إلى معرفة أوامره لنفعلها حتى نظفر برضاه؟

وما الطريق إلى العلم بنواهيه لنجتنبها فنأمن سخطَه وعقابه؟

وما هي حدودُه التي ينبغي على عبيده الوقوف عندها وعدم مجاوزة أعلامها؟

والإجابة على هذا السؤال لا تتمُّ إلا بمعرفة ركن ركين من

أركان الإيمان، وبضبط أصل أصيل من أصول الاعتقاد لا تتحقَّـــق النَّجاة إلا به، ولا سبيل إلى عبادة الخالق بدون تحقيقـــه والعمـــل بموجبه؛ ألا وهو: الإيمان بالرُّسُل الإلهيَّة، والتَّصديق بالكتب الرَّبَّانيَّة.

وها هي الأدلَّةُ العقليَّةُ الدَّالَّةُ على وجوب بعثة الرُّسل وإنزال الكتب:

قد ثَبَتَ وتَقَرَّرَ لدينا أنَّ اللهَ ملكٌ قاهرٌ خَلَقَ الخلـــقَ بحكمـــة ولغاية عظيمة، والملكُ القاهرُ لابدَّ من طاعته، والطاعـــةُ تســـتلزم التَّشريعَ، والتَّشريعُ يقتضي البيان والبلاغ.

إذاً لابُدَّ من حتميَّة بعث النَّبيِّين والمرسلين من قبل ربِّ العالمين؛ ليبلِّغوا عبادَه مواطنَ محبَّته ليفعلوها حتى يظفروا برضاه، ومـــواطن غضبه ليجتنبوها فيأمنوا من سَخَطه وأليم عقابه.

ثم إنَّ إعطاءَ القدرة والآلة والعقل من الخالق المنعم لعباده بدون تكاليف وضوابط وحدود يقتضي كونَه سبحانه راضـــياً بقبـــائح الأفعال، وبسيئ الأعمال والأقوال والأخلاق... وذلـــك لا يليـــق بحكمته وإلهيَّته، ولا بكمال ملكه وعدله.

إذاً لابدَّ من التَّكليف؛ وهو لا يتمُّ إلَّا بإرسال الرُّسُل وإنـــزال الكتب مع وجود دار يحاسَب فيها الخلائق؛ وقد مَرَّت بنا الأدلـــةُ والبيِّنات على وجوب البعث بعد الممات لحساب العباد علـــى مـــا اقترفت أيديهم من الصَّلاح والفساد، والعقاب قبل البيان ظلم، والله منزَّهٌ عن الظُّلم كلِّه يسيره وجليله.

ومن ثَمَّ تحتَّم البيانُ المتمثِّلُ في إرسال الرُّسُل وإنزال الكتـــب؛

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥).

وههنا سؤال لمنكر النُّبُوَّة: هل كَلَّفَ الله عبادَه أم لا؟

فإن قال: إنَّ الله لم يكلِّف أحداً من خلقه.

فالجواب: إنَّ هذا باطلٌ كلَّ البطلان؛ لاستلزامه التَّسويةَ بين العبد الذي يَعْبُدُ ربَّه ولا يتعدَّى حدودَه ويحفظ لسانه وفرجه عن الخطايا ويصون يدَه عن البطش ورجلَه عن السعي بالفساد، وبين الذي يَسُبُّ ربَّه ويتعدَّى حدودَه ويمشي بالوقيعة بين الناس، ويظلمهم ويقتلهم بغير حقٍّ، ويغتصب أموالهم، وينتهك أعراضهم...

ونحن نجد من فطَرنا وعقولنا الفرقانَ الفارقَ والحَدَّ الفاصلَ بين الطَّيِّبات والخبائث، وكذلك بين ما نرجوه ونتمنَّاه من حال ومآل أصحابهما؛ فالفطَرُ المستقيمة والعقول الصَّحيحة تأبَى جوازَ التَّسْوية بين الطَّيِّبات والخبائث؛ وهذا يَسْتَلْزم التَّكليف، والتَّكليفُ يَقْتضي البلاغَ والبيان.

وإن قال: نعم؛ قد كلَّف اللهُ خلقَه.

فههنا لابدَّ من مبلِّغ ومبين؛ وما ذاك إلا الرَّسول؛ قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩١).

الفصل السابع

إن الدين عند الله الإسلام

والآن أيها القاريء النجيب الحريص على النجاة والوصول إلى بر الأمان.. بعدما طفنا سويًّا في رحلة إيمانية مباركة حول أصـــول الاعتقاد الصَّحيح المنبثقة من دلائل العقول الصَّحيحة، ورأينا وتيقنَّا في كلِّ محطة من محطَّات رحلتنا الموفَّقة الموافقة والمطابقة الكلِّيَّة بين صريح المعقول وصحيح المنقول لدى المسلمين؛ ومن ثَمَّ أصبح لزاماً علينا وحَريًّا بنا أن نصدع بها مدوِّيةً: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، ونمدَّ صوتنا بإعلان حقيقة لا ريبَ فيها وهي: ﴿وَمَنْ يَبْتَــغِ غَيْــرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِــنَ الْخَاسِــرِينَ *﴾[آل عمران: ٨٥].

إن الله – جل في علاه – قد خلق الإنسان في أحسن تقــويم، وحلاه بعقل سديد في البراهين الباهرة والأدلة البينة والحجج الدامغة على: وجوب معرفته، ومحبته، وتوحيده، وعبادته وحده بلا شريك.

وكذلك أنعم عليه بفطرة مستقيمة تلحّ عليه بصدق التَّوجــه، وضرورة التذلُّل لفاطرها مع إخلاص العبادة له، وحتميَّة البراءة من كلِّ معبود سواه، وحتى لا يتشكَّك العبادُ فَيَتَسَنَّى للشياطين إمالتهم عن مقتضَى فطرهم وعقولهم، وأقام الحكيم الخبير آياته الكونيَّــةَ،

ومخلوقاته المرئيةَ أعلاماً شاهدةً ومنارات ناطقةً بصحَّة ما جُبلت عليه الفطَرُ والعقول، ثمَّ أرسل اللهُ رسلَه وأنزل كتبَه داعيةً إلى شهادة الفطَر والعقول وإلى العمل بموجبها والحذَر من نواقضها؛ فاطمأنَّت نفوس الموحِّدين، وثلجت صدورُهم، وعلموا أنَّ الفطرةَ والعقلَ والوحيَ خرجوا جميعاً من مشكاة واحدة؛ فعبدوا ربَّهم ووحَّدوه، ومجَّدوه، وعظَّموه بداعي الفطرة وداعي العقل وداعي الوحي، فاجتمعت لهم كافَّةُ الدَّواعي، ونادت عليهم: أن هلمُّوا إلى توحيد ربِّكم وفاطركم، واكفروا وانخلعوا من كافَّة حبائل الوصل، وسائر جسور التَّعَلُّق بكلِّ معبود سواه.

تعريف الإسلام الصحيح الذي هو سبيل النجاة:

والآن، لقد آن الأوانُ وحانت ساعةُ الإجابة على السُّؤال الذي أُعدَّت الرِّسالةُ من أجله؛ وهو:

كيف نكون مسلمين؟

كيف نحقِّق العبودية لله، وننخلع من ربقة العبودية من كلِّ ما سواه؟

والجواب: لقد أرسلَ اللهُ رسلَه وأنزل كتبَه من أجل أن يقومَ العبادُ بتوحيده، ويكفروا بكلِّ معبود سواه؛ وحتَّى تتحقَّق " لا إله إلا الله " قولاً واعتقاداً وعلماً وعملاً وسلوكاً ومنهجاً؛ فـ " لا إله إلا الله " مبنيَّةٌ على أصلين هما: النَّفي والإثبات؛ فمعنى النفي: "خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنة ما كانت"، ومعنى الإثبات هو: "إفرادُه- جلَّ وعلا- بجميع أنواع

العبادة على الوَجْه الذي شرَّع أن يُعْبَدَ به"[1].

فتحقيقُ العبودية لله هو شطر الرُّكن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثِّل في شهادة "لا إله إلا الله"، والتَّلَقِّي عن الرَّسول صـــلى الله عليه وسلم في كيفية تحقيق هذه العبودية هو شطرها الثاني المتمثل في شهادة "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم"، ولابُدَّ من تحقيـــق تلك العقيدة في القلوب أَوَّلاً؛ لأنَّ كلَّ ما وراءها مـــن مقوِّمـــات الإيمان وشرائع الإسلام إنَّما هو مقتضًى لها وأثرٌ من آثارها؛ فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خـــيره وشـــره، وكذلك الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ثم الحدود والتعـــازير، والحل والحرمة، والمعاملات، والتشريعات، إنَّما تقوم كلُّهـــا علـــى قاعدة العبوديَّة لله وحده، كما أنَّ المرجعَ فيها هو ما بَلَّغَه لنا رسولُه صلى الله عليه وسلم.

إنَّ التَّصَوُّرَ الإسلاميَّ الصَّحيح لعقيدة التَّوحيد يضع خطوطـــاً واضحةً وأعلاماً فاصلةً بين طبيعة الألوهيَّة وطبيعة العبودية، وبـــين مقام الألوهيَّة ومقام العبودية، وبين خصائص الألوهية وخصـــائص العبودية؛ فهما لا يتماثلان ولا يتداخلان، وكذلك بـــيَّنَ التَّصـــوُّرُ الإسلاميُّ بياناً حاسماً مَن هو الإله صاحب الأمر والنَّهي والحكـــم والتَّشريع، ومَنْ هم العبيد الذين هم محلُّ العبوديَّة والسَّمع والطَّاعة.

وحتى نكون مسلمين لابُدَّ أن نستسلمَ لله وحـــدَه بالطَّاعـــة والقبول والانقياد والإذعان، ونفرده سبحانه بتلقِّـــي الاعتقـــادات

---

(1) الإسلام دين كامل لفضيلة الشيخ العلامة : محمد الأمين الشنقيطي بتصرف بسيط.

والتَّصَوُّرات والغيبيـــَّات والشَّعائـــر والشَّرائـــع والقيـــم والموازيـــن والأخلاق والسُّلوك وكافَّة المعاملات في سائر شؤون الحياة...

فمن استسلم لله وحدَه هذا الاستسلام فهـــو المســـلم، ومـــن استسلم له ولغيره فهو مشرك به، ومن لم يستسلم له فهو مســـتكبرٌ عن عبادته، وكلا المشرك والمستكبر كافر بربِّه.

فمن لم يستسلم لله بالانقياد لأمره والطَّاعة لشرعه والاتِّبـــاع لرسوله صلى الله عليه وسلم ومنهجه ويطعه ويتبعه فليس بمســـلم، ومن ثَمَّ فلا يكون صاحب دين يرضاه الله؛ فـــالله لا يرضـــى إلَّـــا الإسلام القائم على التوحيد؛ فالتَّوحيدُ الخالصُ الناصعُ هو مفـــرق الطريق بين عقيدة المسلم وبين سائر العقائد الأخرى؛ سواء منـــها عقائد الملحدين والمشركين وعقائد أهل الكتاب المنحرفين، وكذلك هو مفرق الطَّريق بين حياة المسلم وحياة كافَّة الكفَّار في الأرض.

فالعقيدة هنا تحدِّد منهجَ الحياة ونظامَها تحديداً كاملاً دقيقـــاً؛ فهي مفرقُ الطَّريق في التَّصوُّر والاعتقاد، وفي الحياة والسلوك...

فالحياةُ الإسلاميَّةُ بكلِّ مقوِّماتها إنَّما تنبثق انبثاقاً من حقيقة هذا التَّصَوُّر الإسلاميّ الدَّقيق عن التَّوحيد الخالص الجازم؛ التوحيد الذي لا يستقيم عقيدة في القلوب والضمائر ما لم تتبعه آثارُه العمليَّـــةُ في الحياة من تَلَقِّي الشَّرائع والشَّعائر من الله وحده في كلِّ شأن مـــن شؤون الحياة، مع التَّوَجُّه إليه بكلِّ الحركات والسَّكَنات والأفعـــال والأقوال والأعمال...

أعود فأقرِّر أنَّ الإسلامَ يعني بوضوح أنَّه لا مكان للعبودية إلا لله، ولا مكان للتَّلَقِّي والقبول إلَّا من الله؛ سواءً كان في شـــريعة أو شعيرة، أو نظام، أو آداب، أو خلق، أو في اقتصاد، أو اجتماع...

ولا مكانَ كذلك للتَّوَجُّه لغير الله في أيِّ شأن مـــن شـــؤون الحياة؛ فالإسلام يعني أن يتحرَّر العبد من ربقة العبوديَّة لغير الله مع إخلاص العبادة لله الواحد القهَّار.

فالنُّظم، والشَّرائع، والتَّصوُّرات، والقيم، والموازين، والقوانين، لا تُتَلقَّى إلَّا من سيِّد واحد وهو ربُّ الأرباب، وأما بـــاقي الخلـــق فكلُّهم عبيدٌ سواسية أمام الملك القهَّار، لا يتَّخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دونه يحِلّون ويحرِّمون ويشرِّعون وينسخون ويحكمون من قبل نفوسهم وأهوائهم...

والإسلامُ بهذا المعنى هو الدِّين المتقبَّل عند الله الذي أرسل بـــه رسلَه، وأنزل له كتبَه ليُخرجوا النَّاسَ من الظُّلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جَوْر الأديـــان إلى عدالـــة الإسلام، ومن ضيق الدُّنيا إلى سَعَة الآخرة؛ فمن تولَّى عـــن هـــذا فليس بمسلم، وإن زعم غير هذا.

والذي يخرج عن هذا الدين يخرج في الحقيقة على نظام الكون كلِّه كما أراده الله مستسلماً له وحده بلا شريك؛ قـــال تعـــالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًـــا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣).

والذي يراجع ركامَ التَّصَوُّرات الخابطة في الظَّلام بـــلا دليـــل

الشَّاردة في التّيه بلا زمام المجادلة في الله بغير علـــم ولا هـــدى ولا كتاب منير، يعلم ويتيقَّن أنَّ هذا الشُّرود والتَّخبُّط والشرور كـــان بسبب عدم إخلاص العبوديَّة لله ووحدانية التَّلَقِّي منـــه ســـبحانه؛ فإخلاص العبودية له، ووحدانية التَّلَقِّي منه هي التي تنير لنا الطَّريقَ في كيفية عبادته ومعرفته، وفي كيفية التَّعامل مع كافَّة المخلوقـــات من حولنا؛ فمن هذه العقيدة وحدَها تنبثق كافَّة قواعد التَّعامل مـــع شتَّى الآفاق والعوالم، وعليها تقوم.

وما زالت البشرية تدفع الثمن غالياً من أرواحها وأجســـادها، ومن مشاعرها وأخلاقها بسبب انحرافاتها عن قاعـــدة العبوديـــة لله وحده بلا شريك، والدَّينونة له بلا منازع، مع التزام منهجه للحياة إقراراً بألوهيته وحده، وامتثالاً بالعبودية والدينونة لـــه دون أحـــد سواه.

والآن أنقل عن الأستاذ سيد قطب[1]- رحمه الله- نقلاً يبـــيِّن فيه مفرق الطريق بين هذا الدِّين وسائر المناهج غيره: "إنَّ النَّاسَ في نظام الحياة الإسلاميِّ يعبدون إلهاً واحداً يفردونه سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة- بكلِّ مفهومات القوامة؛ فيتلقَّون منـــه وحـــده التَّصَوُّرات والقيم والمـــوازين والأنظمـــة والشَّـــرائع والقـــوانين والتَّوجيهات والأخلاق والآداب.. بينما هم في سائر النُّظُم يعبدون آلهةً وأرباباً متفرِّقة يجعلون لها القوامة عليهم مـــن دون الله حـــين

(1) لا بد من باب إهداء المعروف لأهله، والاعتراف لأهل الفضل بالمن والكرم أن أقرِّرَ أنَّ جلَّ ما كتبتُه عن تعريف الإسلام الصَّحيح هو من تراث الشيخ- رحمـــه الله- وطَيَّبَ مَثْواه .

يتلقَّون التَّصَوُّرات والقيم والموازين والأنظمة والشرائع والقـــوانين والتوجيهات والآداب والأخلاق من بَشَر مثلهم؛ فيجعلونهم بهـــذا التلقِّي أرباباً، ويمنحونهم حقوقَ الألوهيَّة والربوبيَّة والقوامة عليهم.. وهم مثلهم بشر.. عبيد كما أنهم عبيد..

ونحن نسمي هذه النُّظُم التي يتعبَّد الناس فيهـــا النَّـــاس كمـــا يسميها الله سبحانه نظماً جاهلية مما تعـــددت أشـــكالها وبيئاتهـــا وأزمانها؛ فهي قائمةٌ على ذات الأساس الذي جاء هذا الدين — يوم جاء — ليحطمه، وليحرِّرَ البشرَ منه، وليقـــيم في الأرض ألوهيـــةً واحدة بالمعنى الواسع الشَّامل لمفهوم " العبادة " ومفهوم " الإلـــه " ومفهوم " الرَّبِّ " ومفهوم " الدِّين ".

لقد جاء هذا الدِّينُ ليلغي عبوديَّةَ البشر للبشر في كلِّ صـــورة من الصُّور، وليوحد العبوديةَ لله في الأرض كما أنها عبودية واحدة لله في هذا الكون العريض؛ قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَـــهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ *﴾[آل عمران: ٨٣].

والمنهج الإسلاميُّ المنبثق من هذا الدين— بهذا الاعتبار— لـــيس نظاماً تاريخيًّا لفترة من فترات التاريخ، كما أنه ليس نظامـــاً محلِّيًّـــا لمجموعة من البشر في جيل من الأجيال، ولا في بيئة من البيئـــات؛ إنَّما هو المنهج الثَّابت الذي ارتضاه اللهُ لحياة البشر المتجدِّدة؛ لتبقى هذه الحياة دائرة حول المحور الذي ارتضى الله أن تدور عليه أبـــداً، وداخل الإطار الذي ارتضى الله أن تظلَّ داخلَه أبداً، ولتبقى هـــذه

الحياة مكيَّفةً بالصُّورة العليا التي أكرم فيها الإنسان عن العبودية لغير الله..

وهذا المنهج حقيقةٌ كونيةٌ قائمةٌ بإزاء البشريَّة المتجــدِّدة قيــام النواميس الكونية الدائمة التي تعمل في جسم الكون منذ نشــأته، والتي تعمل فيه اليومَ وغداً، والتي يلقى البشر من جرَّاء المخالفة عنها والاصطدام بها ما يلقون من آلام ودمار ونكال!

والناس إمَّا أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكليَّته فهم مسلمون، وإما أن يعيشوا بأي منهج آخر من وضع البشر فهم في جاهلية لا يعرفها هذا الدِّين ذات الجاهلية التي جاء هذا الدِّين ليحطمها وليغيِّرَها من الأساس؛ يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله.

والناس إمَّا أن يعيشوا بمنهج الله هذا بكلِّيَّته فهم في توافق مــع نواميس الكون، وفطرة الوجود، وفطرتهم هم أنفســهم، وإمــا أن يعيشوا بأيِّ منهج آخر من صنع البشر، فهم في خصام مع نواميس الكون وتصادم مع فطرة الوجود، ومع فطــرتهم هــم أنفســهم؛ بوصفهم قطاعاً في هذا الوجود... تصادم تظهر نتائجه المدمرة من قريب أو من بعيد..."[1].أ.هـ

وأريد أن أنبِّهَ في هذا المقام على أمر جليل جدِّ خطير، وهو أنه:

لا بُدَّ للمسلم ساعةَ دخوله في هذا الدِّين أن يخلعَ على بابه كلَّ حياته الجاهلية وكافَّةَ تصوُّراته واعتقاداته، ويشعر بنقلــة مذهلــة

([1]) المستقبل لهذا الدين للإمام / سيد قطب من (٨-١١) .

انتقلها من دين إلى دين، ومن اعتقاد إلى إعتقاد، ومن تصوُّرات إلى تصوُّرات، ومن منهج إلى منهج، ومن بيئة إلى بيئة، ومـــن ولاء إلى ولاء، ومن براء إلى براء، ومن توجُّه إلى توجُّه... وعلى الجملة فقد انتقل من عبودية إلى عبودية أخرى، ومن تألُّه آلهة شتى إلى ألوهيـــة الله الواحد القهار؛ وبهذا تكون قد اتَّضَحت الأعلام وبانت الصراط وعلت راية النجاة.

فأيُّما عبد هدى الله قلبَه وشرح صدرَه أراد الهدايـــةَ وتجنُّـــبَ الغوايةَ وجمع قلبَه وعقلَه على الاستقامة والدينونة بهذا الدين الـــذي تتحقق به النجاة في الدنيا والآخرة فعليه أن يتلفَّظَ بأعظم شهادة في الوجود قائلاً: " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم"، وأن يعلم معناها، ويعمل بمقتضاها؛ فالإسلام ليس كلمةً تقال باللِّسان فقط دون اعتقاد بالجنان وعمـــل بالأركـــان؛ وإنَّما هذه الكلمة علمٌ؛

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّـــهُ﴾ (محمـــد: ١٩)؛ أي لا معبودَ بحقٍّ إلا الله؛ فيجب أن يُفرَدَ جل شـــأنه بكافَّـــة الأعمـــال الظاهرة: كالصلاة والدعاء، والذبح، والنذر، والطواف، وبســـائر الأعمال الباطنة: كالحـــب، والخـــوف، والرجـــاء، والاســـتغاثة، والتوكل، والإنابة...

فحياة المسلم كلُّها أوَّلها وآخرها وسرها وعلانيتها يجـــب أن تكون ابتغاءَ مرضات رب العالمين وخالصة لوجهه الكـــريم؛ قـــال تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَـــا

شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣).

فنحن المسلمين نفخر بأنَّنا الأمةُ الوحيدة التي تفردَّت بإثبـــات كافَّة صفات الكمال لربِّ العالمين على وجه يليق بجلاله وعظـــيم سلطانه، ونَفَتْ عنه سائرَ وجود النَّقص والعيوب، ومن ثمَّ وحَّدَتْـــه سبحانه بالنُّسُك والحكم والولاء، وكفرت بكلِّ معبود سواه.

وهذا التوحيد يحتِّم على أصحابه الموالاةَ والمحبَّـــةَ والنُّصـــرةَ لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمـــؤمنين، والـــبراءة والعـــداوة والبغضاء للكفَّار والمشركين.

وتلك هي ملَّة النبيِّين والمرسلين جميعاً، وعلى رأســـهم إمـــام الحنفاء إبراهيم الخليل– عليه السلام– التي جُعلـــت العصـــمةُ في اتِّباعها والنَّجاة في اقتفاء أثرها.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْـــدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

ولن يستقيم هذا الدِّينُ لأحد حتى يفرد ربّه بالحكم والإذعان، ويكفر بكافَّة الأحكام البشريَّة المفتراة التي ما أنـــزل الله بهـــا مـــن سلطان؛ قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِـــكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠).

فالخالقُ المنعمُ الذي أوجدنا من العدم لابُدَّ أن نفرده بالحكم في ملكه وأن ننخلع ونتبرأ من كلِّ حاكم ومشرِّع لا يستمدُّ ســـلطانَه

من الخالق الآمر النَّاهي؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وشهادة أن "محمداً رسول الله" توجبُ على النَّـــاطق بهـــا أن يصدِّقَه إذا أخبر، وينقاد لأمره، ويذر ما نهى عنه وزجر، وأن يجمع قلبَه ونفسَه على أنَّه لا طريق إلى الله إلا خلف نبيِّه ومصـــطفاه – صلى الله عليه وسلم، وتحت هديه وشريعته، وأن يحبَّه ويؤثرَه على نفسه وماله وزوجه وأولاده، وعلى الناس أجمعين.

والإسلام يفرض على أهله: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبـــه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

والإسلام يوجب على أوليائه فعل الأوامر والطَّاعات، واجتناب المعاصي والموبقات؛ حتى يسلمَ للعبد دينُه، ويأمن من خاتمة السُّـــوء التي تؤول بأصحابها إلى عذاب النار وبئس المصير؛ فالمسلم لابدَّ وأن يكون صادقاً، أميناً، كريماً، قوياً، رحيماً، باراً، حافظـــاً للســـانه ولفرجه عن كلِّ ما يغضب ربَّه ومولاه، ولا يكـــون كاذبـــاً، ولا خائناً، ولا بخيلاً، ولا ظالماً، ولا عاقًّا، ولا زانياً، ولا ســـارقاً، ولا قاتلاً بغير حقّ...

وإذا ظلم نفسَه بمعصية ربِّه وتعدَّى حدودَه ذكرَ الله فاســـتغفر لذنبه؛ لم يصرَّ على سوء فعله لعلمه بأنَّ ربَّه غفور رحيم، يتـــوب على مَن تاب، وأنَّ المغفرةَ بيده وحدَه وليست لأحد سواه؛ قـــال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَـــرُوا اللَّـــهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَـــا

فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *﴾ (آل عمران: ١٣٥- ١٣٦).

الخاتمة

وفي ختام هذه الرسالة أرى أنَّه من واجب الـــبلاغ وفرضـــيَّة البيان التَّنبيهُ على الفرق بين الإسلام المزيَّف والمرقّع الذي يعيشـــه كثير من المنتسبين إليه اليوم، وبين الإسلام الصحيح النَّافع الذي نزل من عند الله على نبيِّه ومصطفاه- صلى الله عليه وســـلم؛ فالـــدِّين الذي يعيشه النَّاسُ اليومَ والمتمثِّل في انتشار الكفر والشِّرك وتضييع الحدود ونبذ الحكم بكتاب ربِّهم وبسنة نبيِّـــه- صـــلى الله عليـــه وسلم- وترك نصرة المسلمين المستضعفين، والركون الى الكفَّـــار والملحدين، والاستظلال براياهم واتباع مناهجهم، مع الانغمـــاس المزري في الموبقات، والفواحش، والشـــهوات، وانتشـــار موائـــد المنكرات، ونوادي القمار، وصالات اللـــهو، وبيـــوت الـــدعارة والخنى- فهذا الدِّين الذي يدين به هؤلاء هو دينهم هم، وليس دين ربِّ العالمين وإله المرسلين.

وأما الإسلام الصحيح الدِّين السماويّ القويم: فهو التوحيـــد والإخلاص، وإفراد العبودية لله الواحد القهَّار مع الكفر والبراءة من كلِّ معبود سواه؛ كل هذا في حال كوننا مستقيمين علـــى دينـــه ومعتصمين بكتابه، وسائرين على شرعه ومنهاجه، ورافعيـــــــن رايته، ومنكِّسين كلَّ راية حادت عن صراطه و لم تستمدَّ شـــرعيتَها من سلطانه... فهذا دأبُ المسلم وحالُه منذ أن دان بهذا الـــدِّين الى أن تفيضَ روحُه مطمئنةً إلى بارئها وفاطرها.

هذا هو دين ربِّ العالمين الذي ارتضاه لعباده وأوليائه، وفطرهم على حسنه، وركَّز في عقولهم أدلَّةَ وجوبه، وأقام آياتـــه الكونيـــة شاهدة بصحَّته، ثم أرسل رسلَه وأنزل كتبَه داعيةً إليه ومبشِّرةً مَـــنْ دان به برحمته وجنَّته، ومنذرةً من خرج عنه بعقابه وناره.

وختاماً: أسأل الله تعالى العلي العظيم أن يجعل ما كتبتُ ابتغاءَ مرضاته خالصاً لوجهه، وأن يدَّخر لي ولأهلي ولـــذرِّيَّتي الأجـــر والثواب عليها يوم نقف بين يديه فـــي ﴿يَـــــــوْمَ لَا يَنْفَعُ مَـــالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨- ٨٩).

وصلِّ اللهمَّ على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدِّين.

وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه:

أبو يوسف: مدحت بن الحسن آل فراج

الفهرس